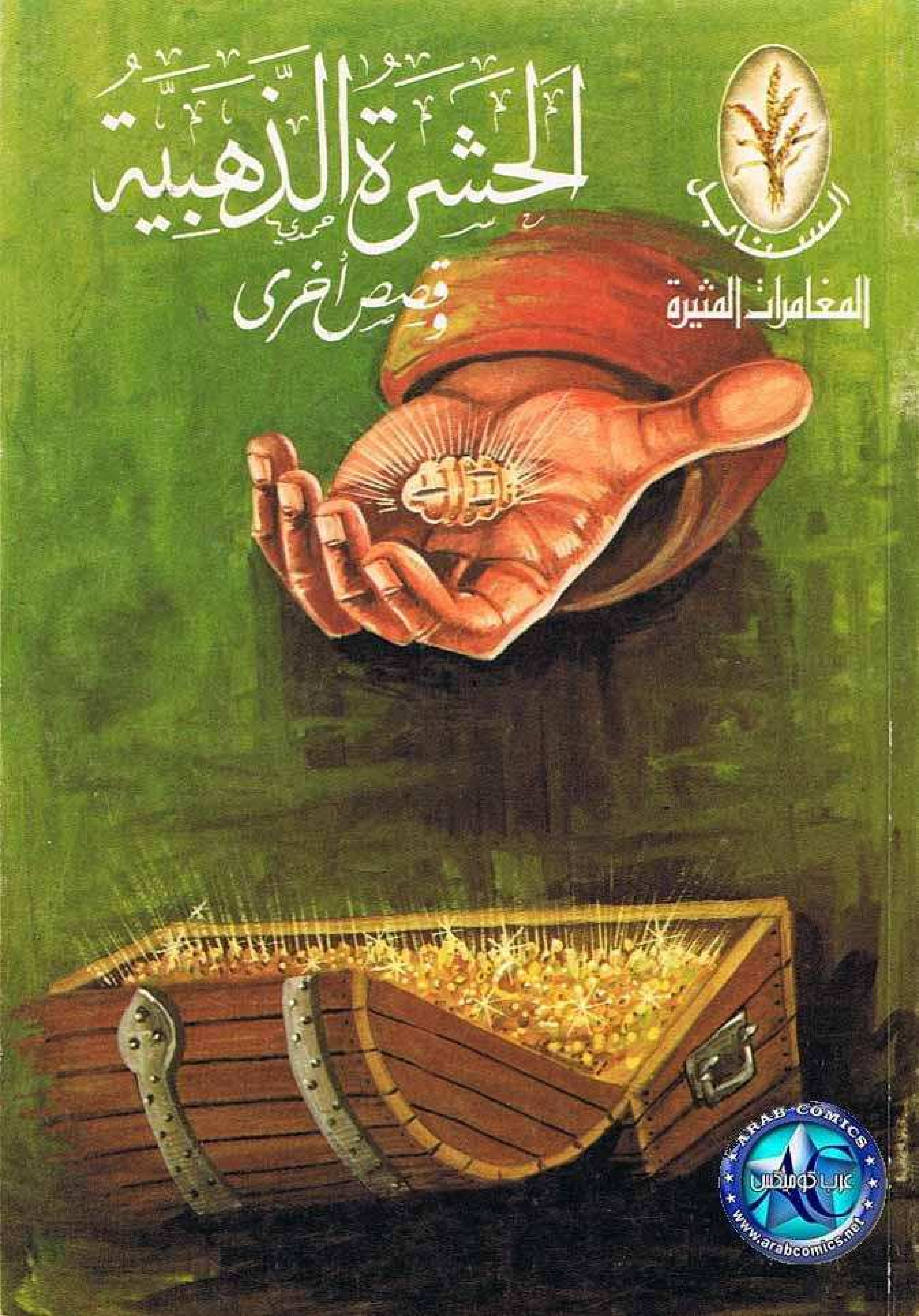
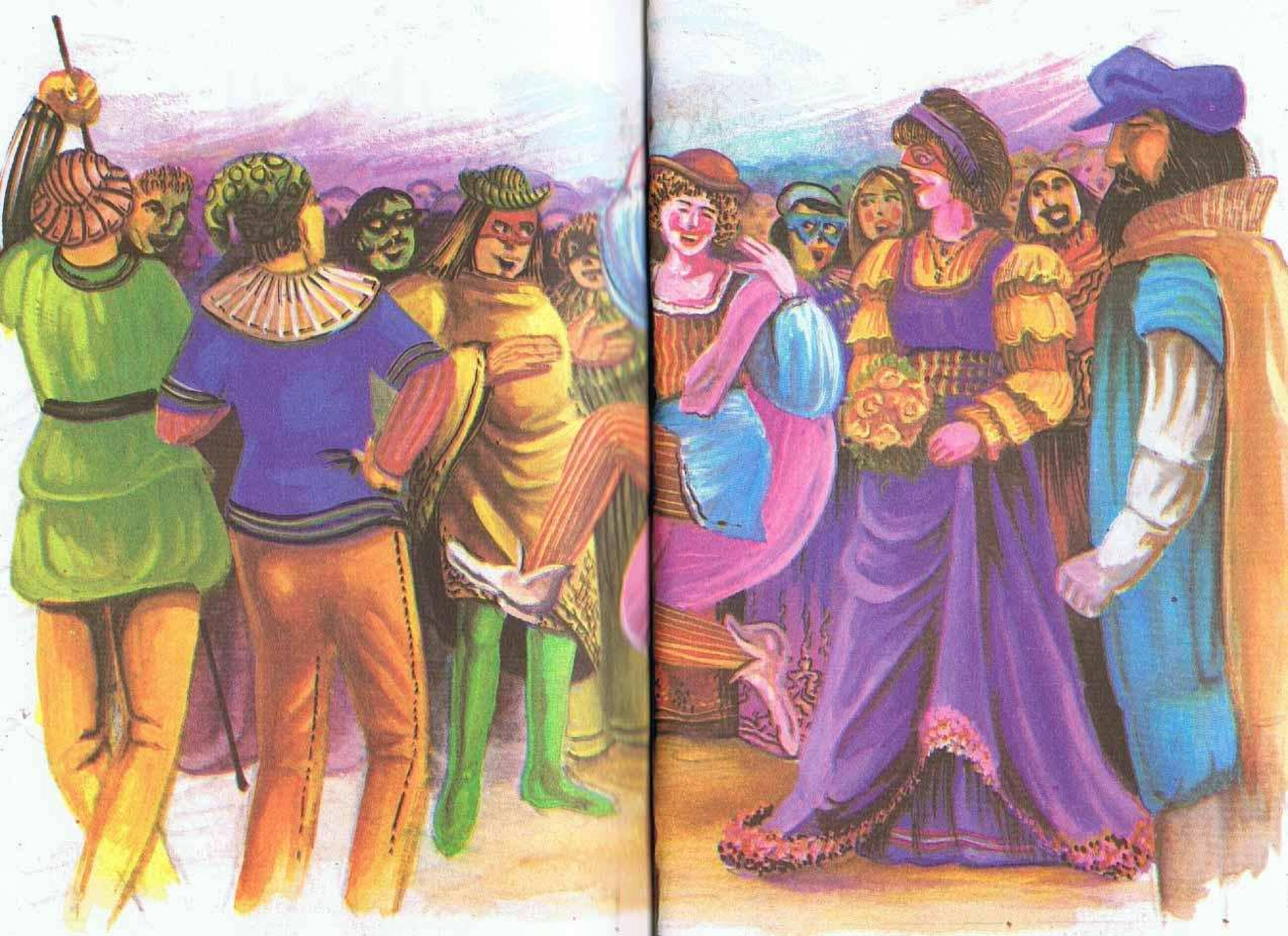


السنابل
المغامرات المثيرة
الحشرة الذهبية
وقصص أخرى
حمدي
ARAB-COMICS
عرب كوميكس
www.arabcomics.net



١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة

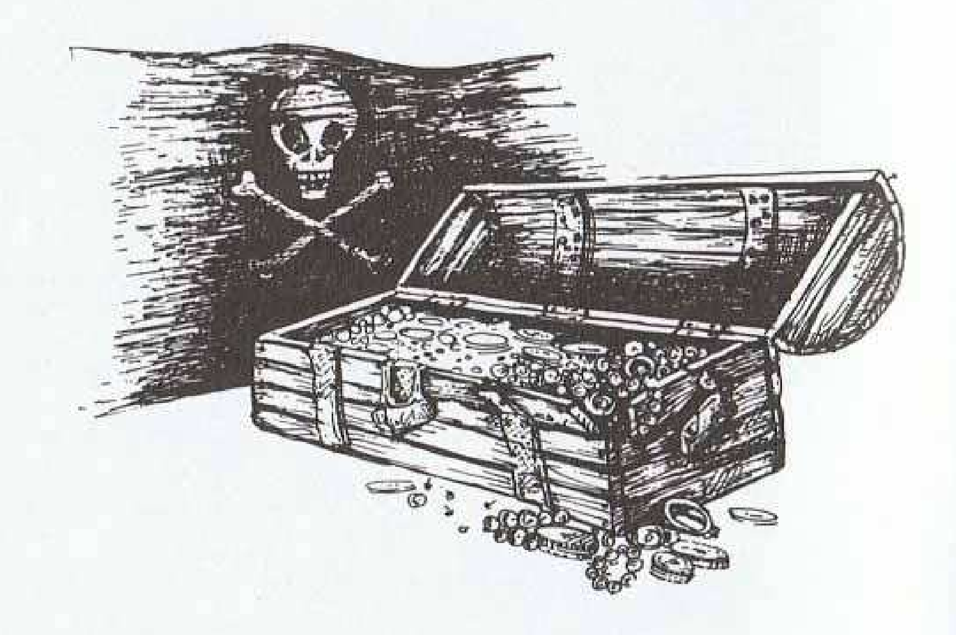
الطبعة الثانية
رقم الإيداع : ٢٢٩٦ / ٨٨
الترقيم الدولى : ISBN ٩٧٧-١٤٤٥-٥٤-٥

طبع بمطابع دار المعارف - القاهرة



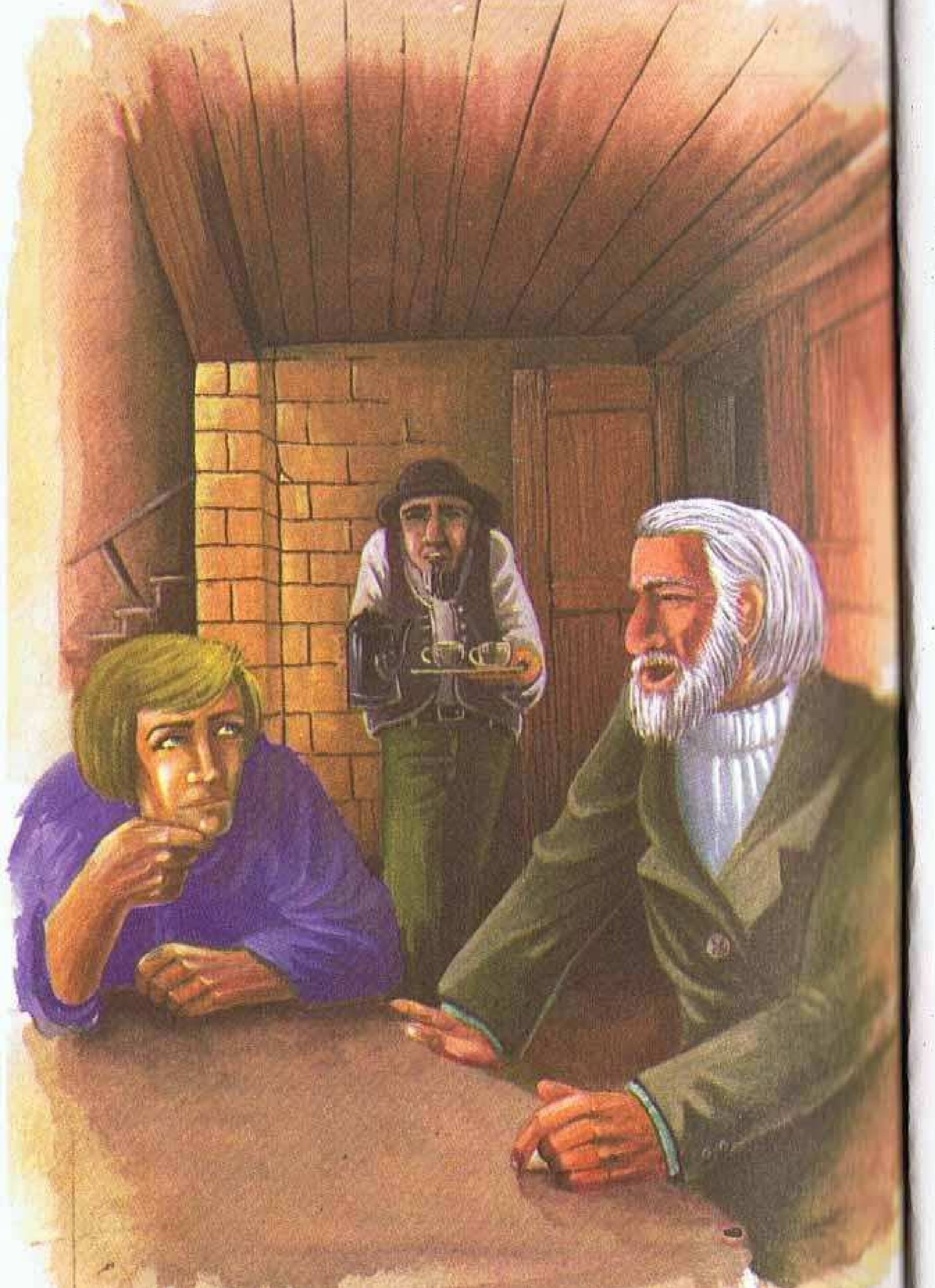
الحشرة الذهبية

وقصص أخرى



تأليف : إدغار آلان پو
إعداد : اسماعيل أبو العزائم
رسوم : حسن عبد الستار

مكتبة لبنان
بيروت



الحَشَرةُ ٱلذَّهَبِيَّةُ

بَدَأَتْ صَداقَتي مَعَ ٱلسَّيِّدِ وِلْيَم لوغران مُنْذُ عِدَّةِ سَنَواتٍ . كانَ يَنْعَمُ بِالثَّراءِ ، وَلٰكِنَّهُ ٱفتقَرَ بِسَبَبِ عَدَدٍ مِنَ ٱلنَّكَباتِ ٱلَّتي أَلَمَّتْ بِهِ . وَلِكَيْ يَتَجَنَّبَ ما قَدْ تُسَبِّبُهُ ٱلفاقَةُ مِنْ إِحْراجٍ ، ذَهَبَ لِيَعيشَ في جَزيرةِ سالِيڤان بِجوارِ تشارْلِسْتُون في وِلايةِ كارُولَينا ٱلجَنوبيَّةِ بالوِلاياتِ ٱلمُتَّحِدةِ ٱلأَمْريكيَّةِ .

عِنْدَما قابَلْتُهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ كانَ يَعيشُ هُناكَ في كُوخٍ صَغيرٍ ، وَمَعَهُ خادِمٌ عَجوزٌ يُدْعى جُوبيتَر . لَقَدْ كانَ لوغران شَخْصًا مُثَقَّفًا يَتَمَتَّعُ بِقُدراتٍ ذِهْنيَّةٍ غَيرِ عاديَّةٍ مِمَّا أَثارَ ٱهتِمامي بِهِ بِدَرَجةٍ كَبيرةٍ . وَقَدْ كانَ يَهْوى ٱلقَنْصَ وَصَيْدَ ٱلسَّمَكِ بِصُورةٍ خاصَّةٍ ، كَما كانَ مُغْرَمًا بِجَمْعِ ٱلأَصْدافِ وَٱلحَشَراتِ .

ذَهَبْتُ إلى ٱلجَزيرةِ لِأَزُورَ صَديقي بَعْدَ ظُهْرِ يَوْمٍ بارِدٍ مِنْ أَيّامِ شَهْرِ أُكْتُوبَر سَنَةَ — ١٨ . وَعِنْدَما وَصَلْتُ إِلى ٱلكُوخِ طَرَقْتُ ٱلبابَ كَعادَتي ، وَلٰكِنْ لَمْ يَفْتَحْ لي ٱلبابَ أَحَدٌ ، فَبَحَثْتُ عَنْ مِفْتاحِهِ في ٱلمَكانِ ٱلَّذي ٱعتادَ صَديقي أَنْ يُخَبِّئَهُ فيهِ . ثُمَّ فَتَحْتُ وَدَخَلْتُ ، وَقَدْ سَرَّني أَنْ وَجَدْتُ ٱلمِدْفأَةَ مُشْتَعِلةً ، فَنَزَعْتُ مِعْطَفي وَجَلَسْتُ بِجِوارِ ٱلنّارِ في ٱنتِظارِ مُضيفي .

وَصَلَ لوغران وَخادِمُهُ عِنْدَ حُلولِ ٱللَّيْلِ وَرَحَّبا بي بِحَرارةٍ : أَسْرَعَ جُوبيتَر لِيُعِدَّ بَطَّةً لِلْعَشاءِ ، بَيْنَما بَدَأَ لوغران يَصِفُ لي شَكْلَ حَشَرةٍ غَريبةٍ كانَ قَدْ وَجَدَها بَعْدَ ظُهْرِ ذٰلِكَ ٱليَوْمِ ويَعْتَقِدُ أَنَّها تَنْتَمي إلى فَصيلةٍ جَديدةٍ غَيْرِ مَعْروفةٍ .

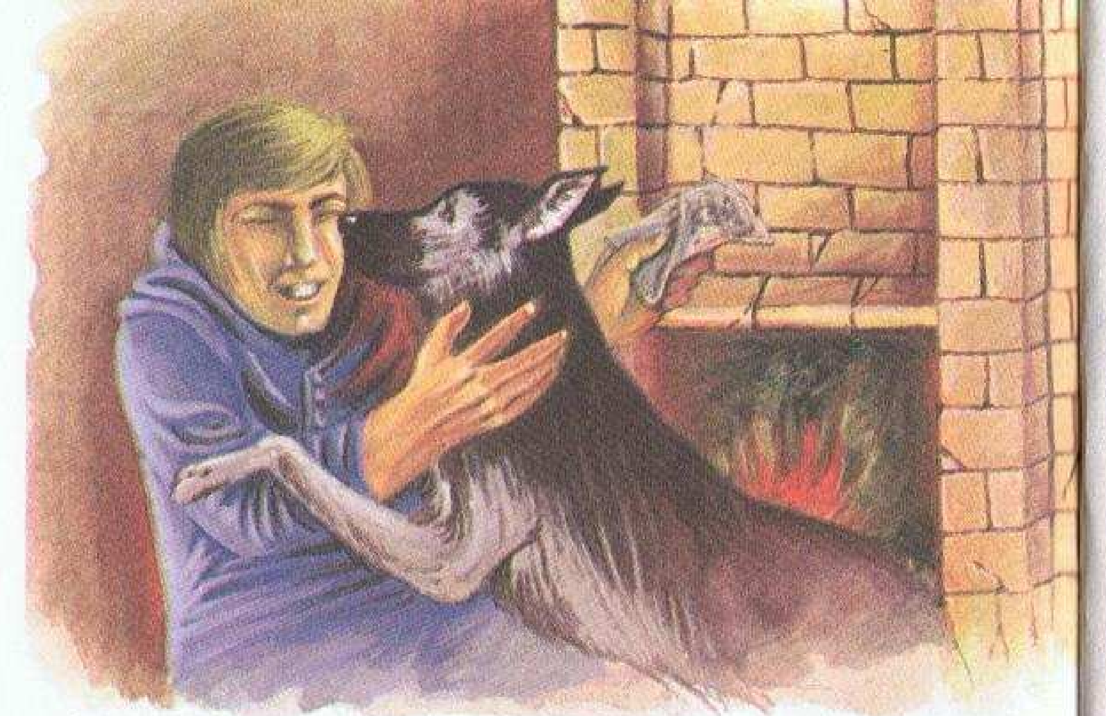
قالَ لُوغران : « لَوْ كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّكَ هُنا لَاحتَفَظْتُ بِها لِأُرِيَكَ إِيَّاها . وَلٰكِنَّي قابَلْتُ صَديقي جـ .. وَأَنا في طَريقي إلى هُنا وَأَعَرْتُهُ ٱلحشَرَةَ لِيَفْحَصَها . إِنَّها ذاتُ لَوْنٍ ذَهَبِيٍّ لامِعٍ ، وَهِيَ في حَجْمِ ٱلبُنْدُقَةِ ٱلكَبيرَةِ ، وَلَها نُقْطتانِ سَوْداوانِ قُرْبَ نِهايَةِ ٱلظَّهْرِ ، وَنُقْطَةٌ أُخْرى أَطْوَلُ في ٱلطَّرَفِ ٱلآخَرِ . وَيَعْتَقِدُ جوبيتَر أَنَّ ٱلحَشَرَةَ مَصْنوعةٌ مِنَ ٱلذَّهَبِ ٱلخالِصِ ، أَمَّا أَنا فَلَسْتُ واثِقًا من أَنَّهُ مُخْطِئٌ في ظَنِّهِ هٰذا . »

وَهُنا تَدَخَّلَ جُوبيتَر قائلًا : « أَنا مُتأَكِّدٌ مِنْ صِحَّةِ ما أَقولُ ، فَلَمْ يَحْدُثْ مِنْ قَبْلُ طَوالَ حَياتي أَنْ وَجَدْتُ حَشَرَةً ثَقيلَةً بِهٰذِهِ ٱلدَّرَجَةِ . »

قالَ لُوغران : « الحَقيقَةُ أَنِّي لَمْ أَرَ قَطُّ مِنَ ٱلذَّهَبِ ما يَلْمَعُ لَمَعانَ تِلْكَ ٱلحَشَرَةِ . وَلٰكِنْ دَعْني أُعْطِكَ فِكْرَةً عَنْ شَكْلِها . » ثُمَّ جَلَسَ أَمامَ مِنْضَدَةٍ ، عَلَيْها دَواةٌ وَقَلَمٌ ، وَلٰكِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْها وَرَقٌ . فَبَحَثَ عَنِ ٱلوَرَقِ في ٱلدُّرْجِ فَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ شَيْئًا .

قالَ : « لا بَأْسَ بِهٰذِهِ . » وَأَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ ما كانَ يَبْدو وَكَأَنَّهُ وَرَقَةٌ مُتَّسِخةٌ مِنْ أَوْراقِ ٱلمُذَكِّراتِ ، وَبَدَأَ يَرْسُمُ عَلَيْها صُورَةَ ٱلحَشَرَةِ بِقَلَمِهِ . وَعِنْدَما ٱنتهى أَحْضَرَ ٱلوَرَقَةَ إِلَيَّ حَيْثُ كُنْتُ جالِسًا بِجِوارِ ٱلمِدْفَأَةِ وَأَعْطانيها . وَعِنْدَما بَدَأْتُ أَدْرُسُ ٱلرَّسْمَ دَخَلَ كَلْبُ لُوغران وَقَفَزَ عَلى كَتِفي وَأَخَذَ يُقَبِّلُني ، لِأَنِّي كُنْتُ أَحَدَ ٱلمُحَبَّبينَ إِلَيْهِ . وَعِنْدَما نَظَرْتُ إلى ٱلوَرَقَةِ بَعْدَ ذٰلِكَ بِقَليلٍ حَيَّرَني ما رَسَمَهُ صَديقي .

قُلْتُ لَهُ : « هٰذِهِ حَشَرَةٌ غَريبَةٌ ، إِنَّها تَبْدو كَما لَوْ كانَتْ جُمْجُمَةً . »



قالَ لُوغران : « جُمْجُمَةٌ ؟ آهٍ ! نَعَمْ ! رُبَّما تَبْدو كَذٰلِكَ عَلى ٱلوَرَقِ . إِذْ قَدْ تَبْدو ٱلنُّقْطَتانِ ٱلسَّوْداوانِ كَما لَوْ كانَتا عَيْنَيْنِ ، وَٱلنُّقْطَةُ ٱلطَّويلَةُ ٱلسُّفْلِيَّةُ كَما لَوْ كانَتْ فَمًا . »

قُلْتُ : « رُبَّما كانَ ذٰلِكَ ، وَلٰكِنَّكَ رَسَّامٌ غَيْرُ ماهِرٍ يا لُوغران ! »

قالَ مُتَضايِقًا بَعْضَ ٱلشَّيْءِ : « لا ، أَوْ عَلى ٱلأَقَلِّ لَقَدْ كانَ مُدَرِّسو ٱلرَّسْمِ لا يَعْتَبِرونَني كَذٰلِكَ . »

قُلْتُ : « حَسَنًا ياصَديقي ، لا بُدَّ أَنَّكَ كُنْتَ تَمْزَحُ . إِنَّ هٰذا ٱلرَّسْمَ صُورَةٌ رائِعةٌ لِجُمْجُمَةٍ ، وَلٰكِنَّهُ صُورَةٌ سَيِّئَةٌ لِحَشَرَةٍ . »

لاحَظْتُ أَنَّ لُوغران بَدا عَلَيْهِ ٱلغَضَبُ ، فَأَعْطَيْتُهُ ٱلوَرَقَةَ مِنْ دُونِ أَنْ أُبْدِيَ

أَيَّةَ مُلاحَظةٍ أُخرى . إنَّ غَضَبَهُ أَدْهَشَني ، أَمَّا بِالنِّسْبةِ لِلرَّسْمِ فَقَدْ كانَ يُشْبِهُ ٱلجُمْجُمةَ تَمامًا .

أَخَذَ ٱلوَرَقةَ مِنّي بِشَيْءٍ مِنَ ٱلضِّيقِ ، وَكادَ أَنْ يُلْقِيَ بِها في ٱلنّارِ عِنْدَما جَذَبَ ٱنْتِباهَهُ شَيْءٌ مّا مُتَعَلِّقٌ بِالرَّسْمِ . وَسَرْعانَ ما ٱحمَرَّ وَجْهُهُ ، ثُمَّ ما لَبِثَ بَعْدَ لَحْظةٍ أَنِ ٱصفَرَّ صُفْرةَ ٱلمَوْتِ . واصَلَ لُوغران فَحْصَهُ لِلْوَرَقةِ عِدَّةَ دَقائقَ ، وَأَخَذَ يُقَلِّبُها مِنْ وَجْهٍ لِآخَرَ دُونَ أَنْ يَقولَ شَيْئًا . وَأَخيرًا أَخْرَجَ ظَرْفًا مِنْ جَيْبِ سُتْرَتِهِ وَوَضَعَ ٱلوَرَقةَ فيهِ بِعِنايةٍ ، ثُمَّ وَضَعَ ٱلظَّرْفَ في دُرْجِ مَكْتَبِهِ وَأَغْلَقَهُ .

دَهِشْتُ لِتَصَرُّفِهِ ٱلغَريبِ هٰذا ، وَخابَ أَمَلي في قَضاءِ سَهْرةٍ مُمْتِعةٍ عِنْدَما لاحَظْتُ ٱستِغْراقَهُ في ٱلتَّفْكيرِ فَتْرةً طَويلةً . وَعِنْدَما قُمْتُ أَسْتَأْذِنُ في ٱلذَّهابِ لَمْ يَدْعُني لِلْمَبيتِ عِنْدَهُ كَما ٱعتادَ ذٰلِكَ ، بَلْ صافَحَني بِفُتورٍ .

مَضَى ما يَقْرُبُ مِنَ ٱلشَّهْرِ مِنْ دُونِ أَنْ أَرى لُوغران ، ثُمَّ جاءَ جُوبيتَر لِزيارَتي في تشارْلِسْتُون . وَكانَتِ ٱلأَخْبارُ ٱلَّتي حَمَلَها غَيْرَ سارةٍ فَقَدْ أَخْبَرَني أَنَّ سَيِّدَهُ مَريضٌ وَفي حاجةٍ إلى ٱلمُساعَدةِ . وَكانَ جُوبيتَر يَعْتَقِدُ أَنَّ سَبَبَ مَرَضِ سَيِّدِهِ لَسْعةٌ مِنَ ٱلحَشَرةِ ٱلذَّهَبيَّةِ أَصابَتْهُ يَوْمَ أَنْ أَمْسَكَ بِها . وَقالَ جُوبيتَر إنَّهُ نَجا مِنْ نَفْسِ ٱلمَصيرِ لِأَنَّهُ أَمْسَكَ ٱلحَشَرةَ بِوَرَقةٍ لِذٰلِكَ لَمْ تَلْسَعْهُ . ثُمَّ أَعْطاني جُوبيتَر رِسالةً بَعَثَ بِها إلَيَّ سَيِّدُهُ لُوغران ، وَأَخَذْتُ أَقْرَأُها وَقَدِ ٱعتَراني شَيْءٌ مِنَ ٱلخَوْفِ .

جاءَ في ٱلرِّسالةِ :

« عَزيزي ... لِماذا لَمْ أَرَكَ مُنْذُ فَتْرةٍ طَويلةٍ ؟ لَدَيَّ بَعْضُ ٱلأَنْباءِ ٱلَّتي أُريدُ أَنْ أُخْبِرَكَ بِها ، وَلٰكِنَّني لا أَعْرِفُ ما أَقولُهُ لَكَ ، أَمِنَ ٱلواجِبِ أَنْ أُفْضيَ بِها عَلى ٱلإِطْلاقِ ؟

« إنَّني أَشْعُرُ بِوَعْكةٍ مُنْذُ عِدَّةِ أَيّامٍ وَأَجِدُ صُعوبةً كَبيرةً في ٱلتَّخَلُّصِ مِنْ جُوبيتَر كَيْ أَقومَ بِبَعْضِ ٱلرِّحْلاتِ ٱلضَّروريَّةِ وَسْطَ ٱلتِّلالِ ٱلسّاحِليَّةِ .

« أَرْجُو أَنْ تَأْتِيَ إلَيَّ مَعَ جُوبيتَر ، إذا كانَ ذٰلِكَ مُمْكِنًا . أَرْجوكَ أَنْ تَأْتِيَ ، فَأَنا أُريدُ أَنْ أَراكَ ٱللَّيْلةَ لِأَمْرٍ هامٍّ . بَلْ في غايةِ ٱلأَهَمِّيةِ .

المُخْلِص ،

وِلْيَم لُوغران »

شَعَرْتُ بِقَلَقٍ شَديدٍ بَعْدَ قِراءَتي ٱلرِّسالةَ وَأَخَذْتُ أَسْأَلُ نَفْسي : « بِأَيِّ شَيْءٍ يَحْلُمُ صَديقي ؟ ما هِيَ تِلْكَ ٱلمَسْأَلةُ ٱلَّتي في غايةِ ٱلأَهَمِّيةِ ؟ أَمِنَ ٱلمُحْتَمَلِ أَنْ يَكونَ ... ؟ وَخَشيتُ أَنْ تَكونَ وَطْأَةُ ٱلنَّكَباتِ ٱلمُسْتَمِرَّةِ قَدْ دَفَعَتْهُ إلى حَدِّ ٱلجُنونِ . وَهٰكَذا وَجَدْتُ نَفْسي أَسْتَعِدُّ لِلذَّهابِ مَعَ جُوبيتَر مِنْ دونِ أَدْنى تَرَدُّدٍ .

لاحَظْتُ أَنَّ جُوبيتَر كانَ يَحْمِلُ مَعَهُ ثَلاثَ مَجارِفَ قالَ إنَّ لُوغران قَدْ طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَشْتَرِيَها مِنْ تشارْلِسْتُون ، وَلَمْ يَعْرِفْ جُوبيتَر ٱلعَجوزُ لِماذا طَلَبَ مِنْهُ لُوغران شِراءَها . قالَ لي : « إنَّها ٱلحَشَرةُ ياسَيِّدي ، وَكُلُّ هٰذا ٱلهُراءِ سَبَبُهُ ٱلحَشَرةُ . »

وَصَلْنا إلى ٱلكُوخِ ٱلسّاعةَ ٱلثّالِثةَ بَعْدَ ٱلظُّهْرِ ، وَكانَ وَجْهُ لُوغران شاحِبًا

بِدَرَجَةٍ كَبيرَةٍ ، وَيَبْدو عَلَيْهِ ٱلإرهاقُ ٱلشَّديدُ . وَكانَتْ عَيْناهُ ٱلسَّمْراوانِ تَلْمَعانِ لَمَعانًا غَريبًا غَيْرَ طَبيعيٍّ . وَعِنْدَما سَمِعْتُ كَلِماتِهِ ٱلأُولى دَقَّ قَلْبي دَقًّا عَنيفًا .

قالَ في نَبْرَةٍ جادَّةٍ : « ما قالَهُ جوبيتر عَنِ ٱلحَشَرَةِ صَحيحٌ . إنَّها مِنَ ٱلذَّهَبِ ٱلخالِصِ ، وَسَوْفَ تَكونُ ٱلسَّبَبَ في حُصولي عَلى ثَرْوَةٍ طائِلَةٍ . »

سَأَلْتُهُ في حُزْنٍ : « كَيْفَ سَيَكونُ ذٰلِكَ ؟ »

لَمْ يُجِبْني ، بَلْ ذَهَبَ إلى صُنْدوقٍ زُجاجيٍّ بِجِوارِ ٱلحائِطِ ثُمَّ جاءَ بِالحَشَرَةِ إلَيَّ . لَقَدْ كانَتْ في غايَةِ ٱلجَمالِ ، وَلَمْ تَكُنْ مَعْروفَةً لِلْعُلَماءِ في ذٰلِكَ ٱلوَقْتِ . كَما كانَتْ ثَقيلَةً وَبَدَتْ – مِنْ دونِ شَكٍّ – كَما لَوْ كانَتْ مَصْنوعَةً مِنَ ٱلذَّهَبِ مِمَّا جَعَلَ رَأْيَ جوبيتر مَعْقولًا . وَلٰكِنْ لَمْ أَفْهَمْ سَبَبَ مُوافَقَةِ لوغران عَلى رَأْيِ ٱلخادِمِ .

قُلْتُ لَهُ : « يا صَديقيَ ٱلعَزيزَ ، إنَّ صِحَّتَكَ لَيْسَتْ عَلى ما يُرامُ و ... »

قاطَعَني قائِلًا : « أَنْتَ مُخْطِئٌ في هٰذا ؛ أَنا في أَتَمِّ صِحَّةٍ ، إذا وَضَعْنا في ٱلاعْتِبارِ ما أُعانيهِ مِنْ تَوَتُّرٍ وَٱنْفِعالٍ . إذا كُنْتَ تُريدُ حَقيقَةً أَنْ أَسْتَعيدَ كامِلَ صِحَّتي فَعَلَيْكَ أَنْ تُخَفِّفَ عَنّي ما أُعانيهِ مِنْ تَوَتُّرٍ . »

« كَيْفَ يُمْكِنُني أَنْ أَفْعَلَ ذٰلِكَ ؟ »

« بِمُنْتَهى ٱلسُّهولَةِ ، سَوْفَ نَذْهَبُ – أَنا وَجوبيتر – في رِحْلَةٍ إلى ٱلتِّلالِ ، وَسَوْفَ نَحْتاجُ إلى مُساعَدَةِ شَخْصٍ نَثِقُ فيهِ . وَسَواءٌ أَ نَجَحْنا أَمْ

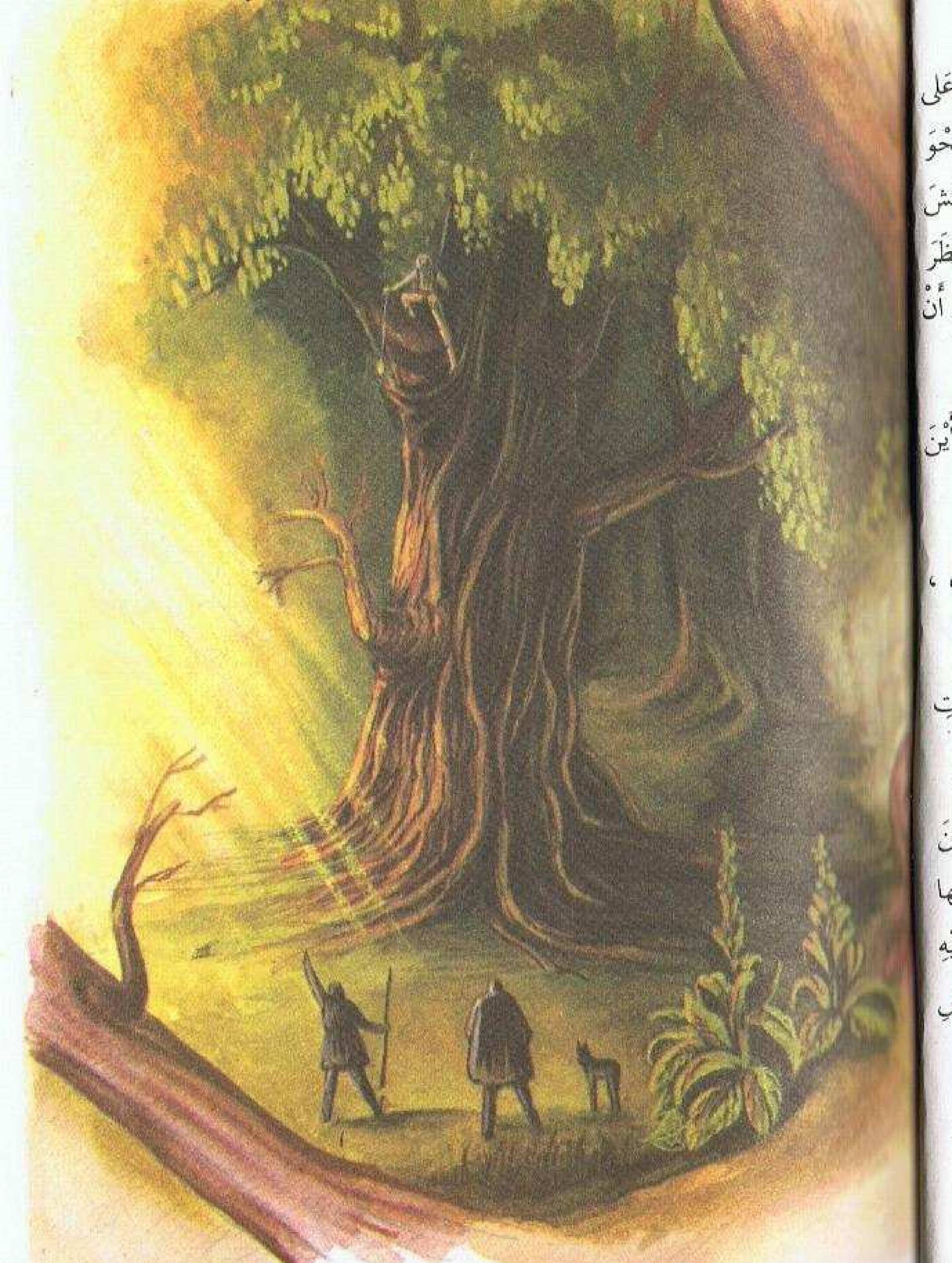
فَشِلْنا في تَحْقيقِ هَدَفِنا ، فَسَوْفَ أَتَخَلَّصُ عَلى ٱلأَقَلِّ مِنْ هٰذا ٱلتَّوَتُّرِ ٱلَّذي أُعاني مِنْهُ . »

أَجَبْتُهُ : « كَمْ أَوَدُّ أَنْ أُقَدِّمَ لَكَ أَيَّةَ مُساعَدَةٍ تَطْلُبُها ، وَلٰكِنَّني أَعْتَقِدُ أَنَّكَ مُخْطِئٌ فيما قُلْتَهُ عَنِ ٱلحَشَرَةِ ، وَأُريدُ أَنْ تَعِدَني بِشَرَفِكَ أَنْ تَعودَ مَعي إلى ٱلكوخِ بَعْدَ ٱنْتِهاءِ هٰذِهِ ٱلرِّحْلَةِ ، وَتُنَفِّذَ ما أُقَدِّمُهُ لَكَ مِنْ نُصْحٍ كَما لَوْ كُنْتُ طَبيبَكَ . »

قالَ لوغران : « « نَعَمْ ، أَعِدُكَ . وَٱلآنَ فَلْنَذْهَبْ ، فَلَيْسَ عِنْدَنا وَقْتٌ لِنُضَيِّعَهُ . »

سِرْتُ مَعَ صَديقي حَزينَ ٱلقَلْبِ ، وَبَدَأْنا رِحْلَتَنا ٱلسَّاعَةَ ٱلرَّابِعَةَ وَكُنَّا أَرْبَعَةً أَنا وَلوغران وَجوبيتر وَٱلكَلْبُ . وَكانَ جوبيتر يَحْمِلُ ٱلمَجارِفَ ٱلثَّلاثَ ، وَكُنْتُ أَنا أَحْمِلُ مِصْباحَيْنِ . أَمَّا لوغران فَلَمْ يَأْخُذْ مَعَهُ إلَّا ٱلحَشَرَةَ ٱلذَّهَبيَّةَ بَعْدَ أَنْ رَبَطَها بِخَيْطٍ طَويلٍ ، وَكانَ يُطَوِّحُ بِها يَمْنَةً وَيَسْرَةً أَثْناءَ سَيْرِهِ . وَٱنْسابَتِ ٱلدُّموعُ مِنْ عَيْنَيَّ وَأَنا أَرى ٱلدَّليلَ ٱلأَخيرَ عَلى ٱخْتِلالِ عَقْلِ صَديقي .

سِرْنا إلى بَرِّ ٱلجَزيرَةِ ٱلرَّئيسيِّ ، ثُمَّ ٱتَّجَهْنا نَحْوَ ٱلشَّمالِ ٱلغَرْبيِّ . وَبَعْدَ مَسيرَةِ ساعَتَيْنِ تَقْريبًا وَصَلْنا إلى أَرْضٍ مُرْتَفِعَةٍ وَمُنْبَسِطَةٍ مُحاطَةٍ بِٱلغاباتِ وَٱلأَراضي ٱلمُعْشِبَةِ ، وَكانَتِ ٱلشَّمْسُ قَدْ آذَنَتْ بِٱلمَغيبِ . وَٱتَّجَهَ لوغران رَأْسًا نَحْوَ شَجَرَةٍ كانَتْ قائِمَةً مَعَ ثَماني أَوْ عَشْرِ أَشْجارٍ أُخْرى وَسَطَ هٰذِهِ ٱلأَرْضِ ٱلمُنْبَسِطَةِ . وَكانَتْ تِلْكَ ٱلشَّجَرَةُ أَطْوَلَ مِنَ ٱلأَشْجارِ ٱلأُخْرى وَأَكْثَرَ



مِنْها جمالًا ، وَكانَتْ فُروعُها مُمْتَدَّةً إلى كُلِّ جانِبٍ ناشِرَةً ظِلالَها عَلى ٱلأَشْجارِ ٱلمُجاوِرَةِ . وَعِنْدَما وَصَلْنا إلى تِلْكَ ٱلشَّجَرَةِ ، ٱتَّجَهَ لوغران نَحْوَ جُوبيتَر وَسَأَلَهُ إذا كانَ في وُسْعِهِ أَنْ يَتَسَلَّقَها . وَبَدا أَنَّ هٰذا ٱلطَّلَبَ قَدْ أَدْهَشَ ٱلرَّجُلَ ٱلعَجوزَ ، وَلِهٰذا ظَلَّ صامِتًا لَحْظَةً ثُمَّ أَجابَ في ٱلنِّهايَةِ بَعْدَ أَنْ نَظَرَ بِعِنايَةٍ إلى ٱلشَّجَرَةِ : « نَعَمْ ، يُمْكِنُني أَنْ أَتَسَلَّقَها . إلى أَيِّ ٱرْتِفاعٍ تُريدُني أَنْ أَتَسَلَّقَها ؟ »

قالَ : « تَسَلَّقِ ٱلجِذْعَ أَوَّلًا ، وَسَوْفَ أُخْبِرُكَ أَيَّ ٱتِّجاهٍ تَأْخُذُ وَأَيْنَ تَتَوَقَّفُ . خُذِ ٱلحَشَرَةَ مَعَكَ . »

قالَ جُوبيتَر بِشَيْءٍ مِنَ ٱلاِشْمِئْزازِ : « تَعْني ٱلحَشَرَةَ ٱلذَّهَبِيَّةَ يا سَيِّدي ، لِماذا آخُذُها ؟ »

قالَ لوغران : « نَفِّذْ ما أَقولُهُ لَكَ . » ثُمَّ أَعْطاهُ ٱلخَيْطَ ٱلَّذي رُبِطَتِ ٱلحَشَرَةُ فيهِ . « وَٱلآنَ ، ٱبْدَأْ في تَسَلُّقِ ٱلشَّجَرَةِ . »

أَمْسَكَ ٱلخادِمُ بِٱلخَيْطِ مُرْغَمًا ، وَبَدَأَ يَتَسَلَّقُ . وَلَمْ يَكُنْ هٰذا ٱلجُزْءُ مِنَ ٱلمُهِمَّةِ ٱلغَريبَةِ أَمْرًا عَسيرًا ؛ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلشَّجَرَةَ كانَتْ كَبيرَةً وَلَمْ يَكُنْ جِذْعُها مُسْتَوِيًا ؛ مِمَّا جَعَلَ بِهِ عَدَدًا مِنَ ٱلتَّجاويفِ ٱلَّتي مَكَّنَتِ ٱلخادِمَ مِنْ تَثْبيتِ قَدَمَيْهِ بِها . وَهٰكَذا أَصْبَحَ جُوبيتَر عَلى بُعْدِ عِشْرينَ مِتْرًا تَقْريبًا مِنَ ٱلأَرْضِ وَلَمْ تَمْضِ إلَّا دَقائِقُ قَليلَةٌ .

صاحَ لوغران : « واصِلْ تَسَلُّقَ ٱلجِذْعِ إلى أَنْ تَصِلَ ٱلفَرْعَ ٱلسّابِعَ . »

بَعْدَ دَقائِقَ قَليلَةٍ سَمِعْنا جوبيتر يَقولُ إنَّهُ عَدَّ سِتَّةَ فروعٍ أَسْفَلَ ٱلفَرْعِ ٱلَّذي يَجْلِسُ عَلَيْهِ .

قالَ لَهُ لوغران بِحَماسٍ شَديدٍ : « الآن يا جوبيتر ، تَسَلَّقْ هٰذا ٱلفَرْعَ إلى أَقْصى قَدْرٍ مُمْكِنٍ وَأَخْبِرْني بِأَيِّ شَيْءٍ غَريبٍ تَراهُ . »

عِنْدَما سَمِعْتُ تِلْكَ ٱلكَلِماتِ قُلْتُ في نَفْسي وَٱلحُزْنُ يَمْلأُ جَوانِحي : « إنَّهُ لَمْ يَعُدْ هُناكَ أَدْنى شَكٍّ في أَنَّ صَديقي قَدْ جُنَّ . »

وَتَمَلَّكَتْني رَغْبَةٌ شَديدَةٌ في أَنْ آخُذَهُ إلى ٱلبَيْتِ . وَأَثْناءَ تَفْكيري في ٱلأُسْلوبِ ٱلأَمْثَلِ ٱلَّذي يُمْكِنُني أَنْ أَتَّبِعَهُ سَمِعْتُ صَوْتَ جوبيتر مَرَّةً أُخْرى يَقولُ : « أَنا مُسْتَمِرٌّ في ٱلتَّسَلُّقِ يا سَيِّدي وَسَوْفَ أَصِلُ قَريبًا إلى .. آهٍ .. رَحْمَتَكَ يارَبُّ . ما هٰذا ٱلَّذي أَراهُ ؟ »

صاحَ لوغران وَقَدِ ٱشْتَدَّ بِهِ ٱلفَرَحُ : « حَسَنًا ماذا تَرى ؟ »

قالَ جوبيتر : « إنَّها جُمْجُمَةٌ وَهِيَ مُثَبَّتَةٌ في ٱلشَّجَرَةِ بِمَساميرَ . »

قالَ لوغران : « حَسَنًا يا جوبيتر ! اِفْعَلْ ما أَقولُهُ لَكَ بِالضَّبْطِ . هَلْ تَسْمَعُني ؟ »

« نَعَمْ يا سَيِّدي . »

« اِنْتَبِهْ لِما أَقولُهُ لَكَ . عَلَيْكَ بِٱلعَيْنِ ٱليُسْرى لِلْجُمْجُمَةِ وَدَعِ ٱلحَشَرَةَ تَسْقُطُ مِنْها في ٱتِّجاهِ ٱلأَرْضِ إلى أَقْصى ما يَصِلُ إلَيْهِ ٱلخَيْطُ . وَلٰكِنْ كُنْ حَريصًا وَلا تَتْرُكِ ٱلخَيْطَ يُفْلِتُ مِنْ يَدِكَ . »

« ٱلعَيْنُ ٱليُسْرى ياسَيِّدي ؟ نَعَمْ وَجَدْتُها . إنَّهُ مِنَ ٱلسَّهْلِ أَنْ أَجْعَلَ ٱلحَشَرَةَ تَسْقُطُ مِنْ تَجْويفِ ٱلعَيْنِ هٰذا . هَلْ يُمْكِنُكَ أَنْ تَراها وَقَدْ سَقَطَتْ إلى أَسْفَلَ ؟ »

بَدَأْنا ٱلآنَ نَرى ٱلحَشَرَةَ تَلْمَعُ في طَرَفِ ٱلخَيْطِ وَكَأَنَّها كُرَةٌ مِنَ ٱلذَّهَبِ تَتَلأْلأُ في أَشِعَّةِ شَمْسِ ٱلغُروبِ . قامَ لوغران عَلى ٱلفَوْرِ بِالإِمْساكِ بِمِجْرَفَةٍ وَأَخَذَ يُنَظِّفُ بِها مِساحَةً دائِرِيَّةً قُطْرُها ثَلاثَةُ أَمْتارٍ أَوْ أَرْبَعَةٌ في ٱلمِنْطَقَةِ ٱلَّتي تَقَعُ تَحْتَ ٱلحَشَرَةِ تَمامًا . ثُمَّ أَمَرَ جوبيتر أَنْ يَتْرُكَ ٱلخَيْطَ يَسْقُطُ وَأَنْ يَنْزِلَ هُوَ مِنْ فَوْقِ ٱلشَّجَرَةِ .

وَضَعَ صَديقي عَصًا في نَفْسِ ٱلنُّقْطَةِ ٱلَّتي وَقَعَتِ ٱلحَشَرَةُ عَلَيْها ، وَضَغَطَ طَرَفَ ٱلعَصا لِتَنْفُذَ في ٱلأَرْضِ . ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ شَريطَ قِياسٍ وَرَبَطَ طَرَفًا مِنْهُ بِأَقْرَبِ جُزْءٍ مِنْ جِذْعِ ٱلشَّجَرَةِ ، ثُمَّ بَسَطَ ٱلشَّريطَ إلى أَنْ وَصَلَ إلى ٱلعَصا . ثُمَّ ٱسْتَمَرَّ بَعْدَ ذٰلِكَ لِمَسافَةٍ تَزيدُ عَلى سِتَّةَ عَشَرَ مِتْرًا وَنِصْفِ ٱلمِتْرِ . وَكانَ جوبيتر يَسيرُ أَمامَهُ مُفْسِحًا طَريقًا لَهُ وَلِلشَّريطِ مُسْتَخْدِمًا ٱلمِجْرَفَةَ . عِنْدَ ٱلنُّقْطَةِ ٱلَّتي وَصَلَ إلَيْها ، جاءَ لوغران بِعَصًا أُخْرى وَغَرَسَها في ٱلأَرْضِ ، ثُمَّ بَدَأَ في تَنْظيفِ ٱلأَرْضِ حَوْلَ ٱلعَصا في دائِرَةٍ قُطْرُها مِتْرٌ وَرُبْعُ ٱلمِتْرِ . وَأَمْسَكَ لوغران بِمِجْرَفَةٍ وَأَعْطاني مِجْرَفَةً وَأَعْطى جوبيتر مِجْرَفَةً أُخْرى ، وَطَلَبَ مِنّا أَنْ نَحْفِرَ عَلى ٱلفَوْرِ .

وَٱلحَقيقَةُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَدَيَّ أَيُّ رَغْبَةٍ في ٱلقِيامِ بِأَيِّ عَمَلٍ آخَرَ . وَكانَ بِوُدّي أَنْ أَرْفُضَ ذٰلِكَ لَوِ ٱسْتَطَعْتُ مِنْ دونِ أَنْ أُضايِقَ صَديقي ٱلمِسْكينَ .

وَلٰكِنَّهُ كانَ مُتَحَمِّسًا جِدًّا ، وَرَأَيْتُ مِنَ الحِكْمَةِ أَنْ أُمْسِكَ بِالمِجْرَفَةِ وَأَتَظاهَرَ عَلى الأَقَلِّ بِالتَّعاطُفِ مَعَهُ .

واصَلْنا الحَفْرَ في ضَوْءِ المِصْباحِ لِمُدَّةِ ساعَتَيْنِ ، وَبَلَغَ عُمْقُ الحُفْرَةِ مِتْرَيْنِ تَقْريبًا مِنْ دونِ أَنْ يَصِلَ إلى شَيْءٍ غَيْرِ الحَصى وَالرَّمْلِ . وَتَوَقَّفْنا عَنِ الحَفْرِ ، وَبَدَأْتُ أُمَنِّي النَّفْسَ أَنَّ هٰذا الهُراءَ قَدْ وَصَلَ إلى نِهايَتِهِ ، وَلٰكِنَّ لُوغران مَسَحَ وَجْهَهُ وَهُوَ غارِقٌ في التَّفْكيرِ ثُمَّ أَمْسَكَ بِالمِجْرَفَةِ مَرَّةً أُخْرى ، وَبَدَأَ يَحْفِرُ ثانِيَةً عَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ عَلاماتِ خَيْبَةِ الأَمَلِ قَدْ ظَهَرَتْ واضِحَةً عَلى وَجْهِهِ .

حَفَرْنا جَوانِبَ الدّائِرَةِ كُلَّها ، ثُمَّ عَمَّقْنا الحُفْرَةَ بِمِقْدارِ قَدَمَيْنِ أُخْرَيَيْنِ . وَمَعَ ذٰلِكَ لَمْ يَظْهَرْ ما يَجْذِبُ النَّظَرَ . وَأَخيرًا تَسَلَّقَ صَديقي جانِبَ الحُفْرَةِ ، وَوَقَفَ فَوْقَها وَقَدْ ظَهَرَتْ عَلَيْهِ عَلاماتُ الهَزيمَةِ المَريرَةِ . وَلَبِسَ سُتْرَتَهُ في بُطْءٍ ، وَجَمَعَ جُوبيتَر أَدَواتِ الحَفْرِ وَقَفَلْنا راجِعينَ وَقَدْ خَيَّمَ عَلَيْنا صَمْتٌ مُطْبِقٌ .

لَمْ نَكَدْ نَمْضي بِضْعَ خُطُواتٍ في طَريقِ عَوْدَتِنا حَتّى أَمْسَكَ لُوغران بِتَلابيبِ جُوبيتَر وَصاحَ فيهِ قائِلًا : « أَيُّها الغَبِيُّ ! أَيُّها الشَّخْصُ الَّذي لا يَصْلُحُ لِشَيْءٍ ! تَكَلَّمْ ! أَجِبْ عَنْ سُؤالي عَلى الفَوْرِ : أَيُّ عَيْنَيْكَ هِيَ العَيْنُ اليُسْرى ؟ »

صاحَ الرَّجُلُ العَجوزُ : « آهٍ ياسَيِّدي ، أَلَيْسَتْ هٰذِهِ هِيَ عَيْني اليُسْرى ؟ » ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلى عَيْنِهِ اليُمْنى ، وَظَلَّ مُحْتَفِظًا بِها هٰكَذا كَأَنَّما يَخْشى أَنْ يَقومَ سَيِّدُهُ بِاقْتِلاعِ العَيْنِ مِنْ مَكانِها .

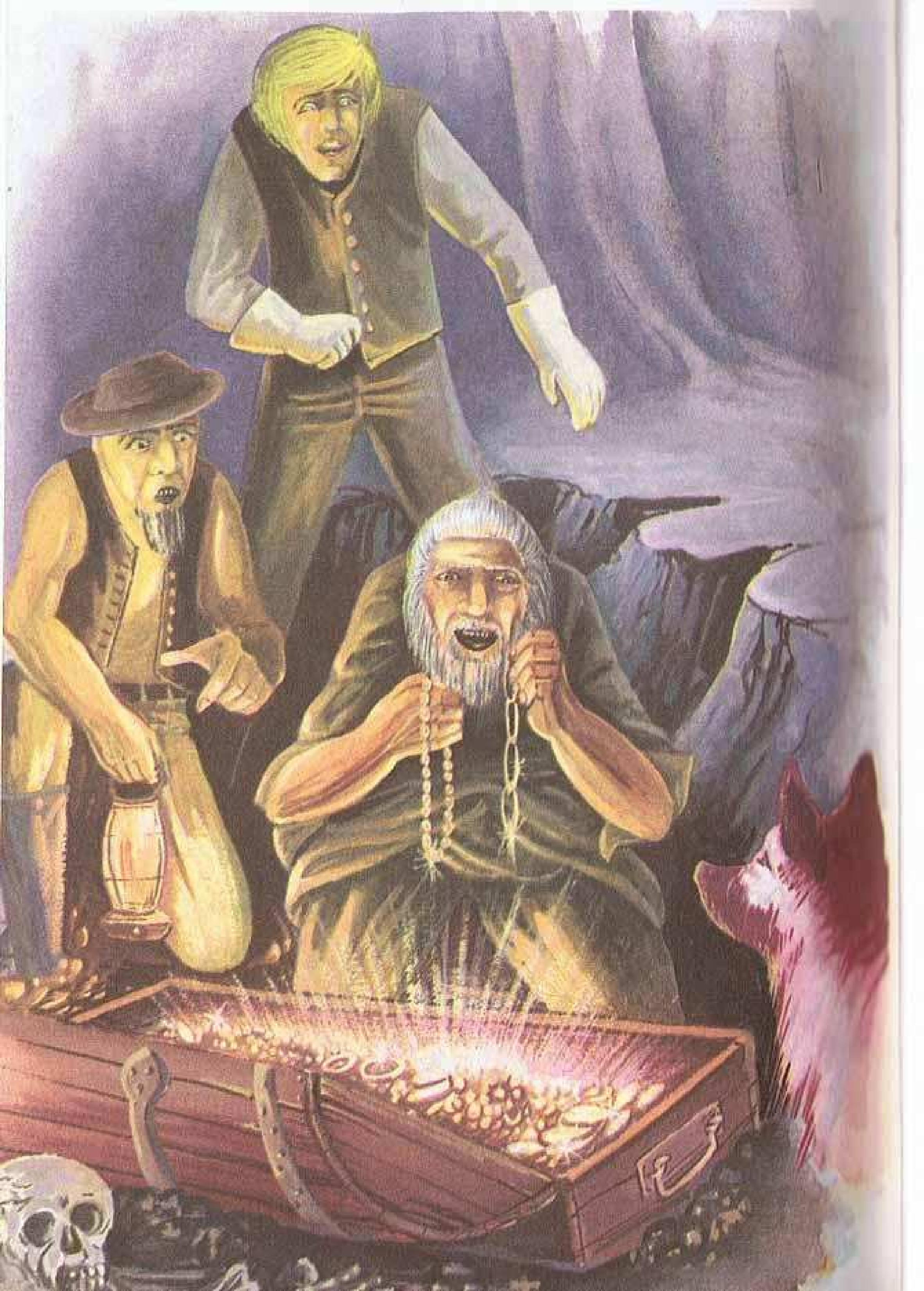
صاحَ لُوغران : « لَقَدْ تَوَقَّعْتُ ذٰلِكَ ، وَعَرَفْتُ كُلَّ شَيْءٍ . مَرْحى ! مَرْحى ! تَعالَيا يَجِبُ أَنْ نَعودَ . » ثُمَّ تَحَدَّثَ بِهُدوءٍ أَكْثَرَ مُسْتَفْسِرًا : « مِنْ أَيِّ عَيْنٍ أَسْقَطْتَ الحَشَرَةَ ، مِنْ هٰذِهِ العَيْنِ أَمْ مِنْ هٰذِهِ ؟ » وَوَضَعَ يَدَهُ عَلى عَيْنَيِ الرَّجُلِ المِسْكينِ الواحِدَةِ بَعْدَ الأُخْرى .

أَجابَ الرَّجُلُ : « مِنْ هٰذِهِ العَيْنِ ياسَيِّدي – العَيْنِ اليُسْرى – تَمامًا كَما طَلَبْتَ مِنّي . » وَوَضَعَ يَدَهُ مَرَّةً أُخْرى عَلى عَيْنِهِ اليُمْنى .

قالَ لُوغران : « هٰذا يَكْفي ! يَجِبُ أَنْ نُعيدَ المُحاوَلَةَ . »

رَجَعْنا إلى الشَّجَرَةِ ، وَنَقَلَ صَديقي العَصا ، الَّتي كانَ قَدْ غَرَسَها في الأَرْضِ في المَكانِ الَّذي وَقَعَتِ الحَشَرَةُ عَلَيْهِ ، إلى مَكانٍ جَديدٍ غَرَسَها فيهِ يَبْعُدُ حَوالَى ثَمانِيَةِ سَنْتيمِتْراتٍ غَرْبِيَّ مَكانِها السّابِقِ . وَأَخَذَ شَريطَ القِياسِ وَقاسَ المَسافَةَ بَيْنَ الشَّجَرَةِ وَالعَصا ، وَاسْتَمَرَّ في خَطٍّ مُسْتَقيمٍ إلى مَسافَةِ سِتَّةَ عَشَرَ مِتْرًا وَنِصْفِ المِتْرِ . وَبِذٰلِكَ وَصَلْنا إلى مَكانٍ يَبْعُدُ عِدَّةَ أَمْتارٍ عَنِ الحُفْرَةِ الَّتي كُنّا قَدْ حَفَرْناها . وَقامَ لُوغران بِعَمَلِ دائِرَةٍ أُخْرى حَوْلَ النُّقْطَةِ الجَديدَةِ ، ثُمَّ بَدَأْنا الحَفْرَ مَرَّةً أُخْرى .

أَخَذْنا نَحْفِرُ صامِتينَ لِمُدَّةِ ساعَةٍ وَنِصْفِ السّاعَةِ تَقْريبًا عِنْدَما قاطَعَنا الكَلْبُ بِنُباحِهِ الشَّديدِ ، ثُمَّ انْدَفَعَ فَجْأَةً نَحْوَ الحُفْرَةِ وَأَخَذَ يَحْفِرُ بِرِجْلَيْهِ الأَمامِيَّتَيْنِ وَكَأَنَّما قَدْ أَصابَهُ مَسٌّ مِنَ الجُنونِ . وَبَعْدَ ثَوانٍ قَليلَةٍ رَأَيْنا كُتْلَةً مِنَ العِظامِ البَشَرِيَّةِ لِشَخْصَيْنِ . وَكانَتْ تِلْكَ العِظامُ مَخْلوطَةً بِما يُشْبِهُ الرَّمادَ الَّذي يُحْتَمَلُ أَنْ يَكونَ نَتيجَةَ تَحَلُّلِ مَلابِسِ المَيِّتَيْنِ . وَبَعْدَ أَنْ رَفَعْنا بَعْضَ



ٱلأَتْرِبةِ وَجَدْنا نَصْلَ سِكّينٍ كَبيرةٍ ، ثُمَّ واصَلْنا ٱلحَفْرَ ، وَبَعْدَ قَليلٍ لَمَعَتْ في ضَوْءِ ٱلمِصْباحِ بِضْعُ قِطَعٍ مِنَ ٱلعُمْلةِ ٱلذَّهَبِيَّةِ وَٱلفِضِّيَّةِ .

أَهابَ بِنا لُوغران أَنْ نُواصِلَ ٱلحَفْرَ ، وَما كادَ يَنْتَهي مِنْ حَديثِهِ حَتّى ظَهَرَتْ حَلْقَةٌ حَديدِيَّةٌ كَبيرةٌ ، وَسُرْعانَ ما ٱكْتَشَفْنا أَنَّ هٰذِهِ ٱلحَلْقَةَ مُتَّصِلةٌ بِصُنْدوقٍ خَشَبِيٍّ كَبيرٍ . فَواصَلْنا ٱلعَمَلَ بِجِدٍّ وَنَشاطٍ وَكانَتِ ٱلدَّقائِقُ ٱلعَشْرُ ٱلتّالِيةُ مِنْ أَكْثَرِ أَوْقاتِ حَياتي إثارةً . كانَ طُولُ ٱلصُّنْدوقِ مِتْرًا ، وَعَرْضُهُ تِسْعينَ سَنْتيمِتْرًا، وَٱرْتِفاعُهُ خَمْسةً وَسَبْعينَ سَنْتيمِتْرًا . وَكانَتِ ٱلحَلْقَةُ ٱلَّتي ظَهَرَتْ لَنا في ٱلبِدايةِ واحِدةً مِنْ سِتِّ حَلَقاتٍ كُلُّ ثَلاثٍ مِنْها في جانِبٍ بِحَيْثُ يَقومُ سِتَّةُ أَفْرادٍ بِحَمْلِ ٱلصُّنْدوقِ . وَلَمْ نَتَمَكَّنْ نَحْنُ مِنْ زَحْزَحةِ ٱلصُّنْدوقِ إلى أَكْثَرَ مِنْ سَنْتيمِتْرَيْنِ ، وَلٰكِنْ مِنْ حُسْنِ حَظِّنا أَنَّ غِطاءَ ٱلصُّنْدوقِ لَمْ يَكُنْ مُغْلَقًا إلّا بِمِزْلاجَيْنِ ، فَلَمّا جَذَبْناهُما إلى ٱلخَلْفِ أَمْكَنَنا أَنْ نَفْتَحَ ٱلصُّنْدوقَ . وَبَعْدَ لَحْظةٍ وَجَدْنا أَمامَنا كَنْزًا لا يُقَدَّرُ بِثَمَنٍ ، وَكانَ ضَوْءُ ٱلمِصْباحِ يَنْعَكِسُ عَلى أَكْوامِ ٱلذَّهَبِ وَٱلجَواهِرِ وَيُرْسِلُ مِنَ ٱلوَميضِ ما لا تَقْدِرُ أَعْيُنُنا عَلى ٱلنَّظَرِ إلَيْهِ لِفَتْرةٍ طَويلةٍ .

لا يُمْكِنُني أَنْ أَصِفَ مَشاعِرَنا وَنَحْنُ نَرى ما رَأَيْنا . لَقَدْ وَقَفْنا مِنْ دونِ كَلِمةٍ أَوْ حَراكٍ لِمُدَّةِ دَقيقَتَيْنِ فيما أَعْتَقِدُ ؛ ثُمَّ جَثا جوبيتر عَلى رُكْبَتَيْهِ وَكَأَنَّهُ في حُلْمٍ ، وَأَدْخَلَ ذِراعَيْهِ حَتّى كَتِفَيْهِ في ٱلذَّهَبِ وَٱلجَواهِرِ وَقالَ في هُدوءٍ : « هٰذا كُلُّهُ قَدْ جاءَتْ بِهِ ٱلحَشَرةُ ٱلذَّهَبِيَّةُ ؟ كُلُّ هٰذا مِنَ ٱلحَشَرةِ ٱلذَّهَبِيَّةِ ! »

أُصْبَحَ لِزامًا عَلَيْنا أَنْ نُفَكِّرَ في طَريقةٍ نَنْقُلُ بِها هٰذا ٱلكَنْزَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ

ٱلصَّباحُ . فَتناقَشْنا في ذٰلِكَ ، وَقَرَّرْنا بَعْدَ فَتْرَةٍ وَجيزَةٍ مِنَ ٱلْمُناقَشَةِ أَنْ نُخَفِّفَ ٱلصُّنْدوقَ بِأَنْ نَنْقُلَ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِ ٱلْقِطَعِ ٱلْكَبيرَةِ وَنَقومَ بِتَخْبِئَتِها وَسْطَ ٱلْأَعْشابِ . وَلَمّا أَنْجَزْنا ذٰلِكَ ، تَرَكْنا ٱلْكَلْبَ لِيَحْرُسَها ثُمَّ أَسْرَعْنا بِٱلصُّنْدوقِ وَوَصَلْنا بِهِ إِلى ٱلْكوخِ ٱلسّاعَةَ ٱلْواحِدَةَ صَباحًا بَعْدَ رِحْلَةٍ شاقَّةٍ لِلْغايَةِ . ثُمَّ أَخَذْنا راحَتَنا حَتّى ٱلثّانِيَةِ وَتَناوَلْنا ٱلْعَشاءَ ، وَرَجَعْنا بَعْدَ ذٰلِكَ إِلى ٱلتِّلالِ وَمَعَنا ثَلاثُ حَقائِبَ مَتينَةٍ ، فَوَصَلْنا إِلى مَكانِ ٱلْكَنْزِ قَبْلَ ٱلسّاعَةِ ٱلرّابِعَةِ . عِنْدَئِذٍ قُمْنا بِتَقْسيمِ ما تَبَقّى مِنْهُ إِلى ثَلاثَةِ أَقْسامٍ مُتَساوِيَةٍ تَقْريبًا ، وَوَضَعْنا كُلَّ قِسْمٍ في حَقيبَةٍ ، وَحَمَلَ كُلُّ واحِدٍ مِنّا حَقيبَةً ، وَقَفَلْنا راجِعينَ لِنَصِلَ إِلى ٱلْكوخِ لِلْمَرَّةِ ٱلثّانِيَةِ وَقَدْ أَوْشَكَ نورُ ٱلصَّباحِ عَلى ٱلظُّهورِ مِنْ بَعيدٍ .

أَخَذْنا قَدْرًا آخَرَ مِنَ ٱلرّاحَةِ ، ثُمَّ قُمْنا بِفَحْصِ قِطَعِ ٱلْكَنْزِ وَفَرْزِها بِعِنايَةٍ كَبيرَةٍ ، فَوَجَدْنا أَنَّنا نَمْتَلِكُ ثَرْوَةً فاقَتْ في ضَخامَتِها كُلَّ ما تَخَيَّلْناهُ . فَقَدْ كانَ عَدَدُ ٱلْعُمْلاتِ يَفوقُ أَرْبَعَمِئَةٍ وَخَمْسينَ أَلْفَ دولارٍ . وَلَمْ تَكُنْ بِٱلْمُجَوْهَراتِ قِطْعَةٌ واحِدَةٌ مِنَ ٱلْفِضَّةِ ، بَلْ كانَتْ كُلُّها مِنَ ٱلذَّهَبِ ٱلْمُتَنَوِّعِ ٱلْأَشْكالِ ٱلَّذي يَرْجِعُ صُنْعُهُ إِلى أَزْمانٍ قَديمَةٍ ، وَكانَتْ هُناكَ نُقودٌ مِنْ مُخْتَلِفِ دُوَلِ أورُبّا . وَكانَ مِنَ ٱلصَّعْبِ تَحْديدُ قيمَةِ ما يَحْتَويهِ ٱلْكَنْزُ مِنَ ٱلْجَواهِرِ وَٱلْأَلْماسِ وَٱللَّآلِئِ ، وَما إِلَيْها وَمِئاتِ ٱلْحُلِيِّ ٱلذَّهَبِيَّةِ ، وَكانَ إِجْمالِيُّ وَزْنِها حَوالَى مِئَةٍ وَثَمانينَ كيلو غرامًا . وَلا يَشْمَلُ هٰذا ٱلرَّقْمُ وَزْنَ مِئَةٍ وَسَبْعٍ وَتِسْعينَ ساعَةً ذَهَبِيَّةً جَميلَةً ، مِنْها ثَلاثٌ يُقَدَّرُ ثَمَنُ ٱلْواحِدَةِ مِنْها بِخَمْسِمِئَةِ دولارٍ . وَقَدْ قَدَّرْنا قيمَةَ ٱلْكَنْزِ كُلِّهِ بِحَوالَى مِلْيونِ دولارٍ وَنِصْفِ ٱلْمِلْيونِ وَلٰكِنَّنا وَجَدْنا بَعْدَ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْقيمَةَ ٱلْحَقيقيَّةَ كانَتْ أَكْبَرَ بِكَثيرٍ .

في ٱللَّيْلَةِ ٱلتّالِيَةِ حَكى لي لوغران قِصَّةَ ذٰلِكَ ٱلْحَدَثِ ٱلْغَريبِ . قالَ : « أَتَذْكُرُ تِلْكَ ٱلْوَرَقَةَ ٱلَّتي رَسَمْتُ لَكَ عَلَيْها صورَةَ ٱلْحَشَرَةِ ؟ »

سَأَلْتُهُ : « ٱلْحَشَرَةُ ٱلَّتي كانَتْ تَبْدو كَجُمْجُمَةٍ ؟ »

أَجابَ : « نَعَمْ ، لَقَدْ كانَتْ تِلْكَ ٱلْوَرَقَةُ في حَقيقَةِ ٱلْأَمْرِ قِطْعَةً مِنَ ٱلْجِلْدِ ٱلرَّقيقِ . وَعِنْدَما أَعَدْتَها إِلَيَّ وَجَدْتُ صورَةَ جُمْجُمَةٍ في ٱلْمَكانِ ٱلَّذي رَسَمْتُ بِهِ صورَةَ ٱلْحَشَرَةِ . وَلٰكِنْ عِنْدَما قَلَبْتُ ٱلْوَرَقَةَ وَجَدْتُ ٱلرَّسْمَ ٱلَّذي رَسَمْتُهُ عَلى ٱلْوَجْهِ ٱلْآخَرِ بِقِطْعَةِ ٱلْجِلْدِ . فَوَجَدْتُ أَمامي لُغْزًا مُحَيِّرًا ، ذٰلِكَ أَنَّني كُنْتُ مُتَأَكِّدًا عِنْدَما قُمْتُ بِرَسْمِ ٱلْحَشَرَةِ أَنَّ وَجْهَيْ قِطْعَةِ ٱلْجِلْدِ كانا خالِيَيْنِ مِنْ أَيِّ رَسْمٍ .

« وَحاوَلْتُ في تِلْكَ ٱللَّيْلَةِ أَنْ أَحُلَّ هٰذا ٱللُّغْزَ بَعْدَ أَنْ خَرَجْتَ أَنْتَ وَبَدَأَ جوبيتَر يَغِطُّ في نَوْمِهِ . وَتَذَكَّرْتُ أَنَّني كُنْتُ قَدْ وَجَدْتُ قِطْعَةَ ٱلْجِلْدِ تِلْكَ عِنْدَما كانَتْ مَطْمورَةً إِلى نِصْفِها في ٱلرَّمْلِ بِجِوارِ ٱلْمَكانِ ٱلَّذي وَجَدْنا ٱلْحَشَرَةَ فيهِ . وَكانَ جوبيتَر قَدْ أَخَذَ تِلْكَ ٱلْقِطْعَةَ مِنَ ٱلْجِلْدِ لِيُمْسِكَ بِها ٱلْحَشَرَةَ خَشْيَةَ أَنْ تَلْسَعَهُ . وَقَدْ وَضَعْتُ ٱلْحَشَرَةَ في قِطْعَةِ ٱلْجِلْدِ وَلَفَفْتُها بِها وَحَمَلْتُها إِلى أَنْ قابَلَنا صَديقي جـ .. وَلا بُدَّ أَنّي وَضَعْتُ قِطْعَةَ ٱلْجِلْدِ في جَيْبي مِنْ دونِ تَفْكيرٍ بَعْدَ أَنْ أَعَرْتُ صَديقِيَ ٱلْحَشَرَةَ .

« عِنْدَما فَكَّرْتُ فيما حَدَثَ تَفْكيرًا عَميقًا تَذَكَّرْتُ حَقيقَةً غَريبَةً ، وَهِيَ أَنّي لاحَظْتُ في ٱلْمَكانِ ٱلَّذي وَجَدْتُ ٱلْحَشَرَةَ فيهِ بَقايا قارِبٍ تابِعٍ لِسَفينَةٍ قَديمَةٍ . وَلَمْ يَتَبَقَّ مِنْ هٰذا ٱلْقارِبِ إِلّا بِضْعُ قِطَعٍ مِنَ ٱلْخَشَبِ مُلْقاةٍ عَلى

الشَّاطئ .. رُبَّما تعتقِدُ أَنَّ الخَيالَ قَدْ جَمَحَ بِي ، وَلٰكِنَّ شَيْئًا ما يَرْبُطُ هٰذِهِ الأَشْياءَ : هُناكَ حُطامُ القارِبِ وَبِجِوارِهِ قِطْعَةٌ مِنَ الجِلْدِ أَوِ الوَرَقِ مَرْسومٌ عَلَيْها صُورةُ جُمْجُمةٍ . أَنْتَ تَعْرِفُ بِالطَّبْعِ أَنَّ الجُمْجُمةَ هِيَ العَلامةُ المُعْتادةُ لِقَراصِنةِ البَحْرِ ، وَأَنَّ عَلَمَ القَراصِنةِ غالِبًا ما يَكونُ عَلَيْهِ صُورةُ جُمْجُمةٍ . »

قاطَعْتُهُ قائلًا : « وَلٰكِنَّكَ قُلْتَ إِنَّ الوَرَقةَ أَوْ قِطْعَةَ الجِلْدِ لَمْ تَكُنْ عَلَيْها أَيَّةُ عَلامةٍ عِنْدَما رَسَمْتَ عَلَيْها صُورةَ الحَشَرةِ . كَيْفَ إِذًا ظَهَرَتْ صُورةُ الجُمْجُمةِ ، وَمَتى ظَهَرَتْ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ؟ »

أَجابَ : « آهٍ ، هُنا يَكْمُنُ السِّرُّ كُلُّهُ عَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ غُموضَهُ لَمْ يَطُلْ . لَقَدِ اسْتَرْجَعْتُ في ذِهْني جَميعَ تَفاصيلِ هٰذا الحادِثِ . فَفي اللَّيْلةِ الَّتي زُرْتَني فيها كانَ الجَوُّ بارِدًا – وَكانَ ذٰلِكَ لِحُسْنِ حَظِّنا – وَكُنْتَ أَنْتَ جالِسًا بِجِوارِ المِدْفأةِ . وَعِنْدَما وَضَعْتَ قِطْعَةَ الجِلْدِ في يَدِكَ وَبَدَأْتَ أَنْتَ تَرى الرَّسْمَ قَفَزَ الكَلْبُ عَلى كَتِفِكَ ، فَبَدَأْتَ تُداعِبُهُ بِإِحْدى يَدَيْكَ ، بَيْنَما كانَتِ اليَدُ الأُخْرى الَّتي تُمْسِكُ قِطْعَةَ الجِلْدِ قَدِ اقْتَرَبَتْ مِنْ نارِ المِدْفأةِ . نَظَرْتُ في آخِرِ الأَمْرِ إِلى قِطْعَةِ الجِلْدِ فَوَجَدْتُ جُمْجُمةً مَرْسومةً عَلَيْها ، وَلٰكِنَّ صُورةَ الحَشَرةِ الَّتي رَسَمْتَها كانَتْ عَلى الوَجْهِ الآخَرِ الَّذي لَمْ تَنْظُرْ إِلَيْهِ . وَعِنْدَما فَكَّرْتُ في هٰذا الأَمْرِ وَجَدْتُ مِنَ المَعْقولِ أَنْ أَسْتَنْتِجَ أَنَّ حَرارةَ المِدْفأةِ هِيَ الَّتي أَظْهَرَتْ صُورةَ الجُمْجُمةِ . فَمِنَ المَعْروفِ أَنَّ هُناكَ بَعْضَ المَوادِّ الَّتي يُمْكِنُ بِواسِطَتِها أَنْ تَكْتُبَ عَلى الوَرَقِ أَوِ الجِلْدِ بِحَيْثُ لا تَظْهَرُ الكِتابةُ إِلَّا عِنْدَ تَسْخينِ المادَّةِ المَكْتوبِ بِها بِحَيْثُ تَخْتَفي هٰذِهِ الكِتابةُ عِنْدَ تَبْريدِها وَلٰكِنَّها تُعاوِدُ الظُّهورَ دائِمًا كُلَّما سَخَّنّاها .

« وَلِكَيْ أَخْتَبِرَ مَدى صِحَّةِ هٰذا الاسْتِنْتاجِ قُمْتُ عَلى الفَوْرِ بِإِشْعالِ النّارِ في المِدْفأةِ ، وَسَخَّنْتُ قِطْعَةَ الجِلْدِ تَسْخينًا كامِلًا . وَبَعْدَ بِضْعِ دَقائِقَ ظَهَرَتْ في الرُّكْنِ المُواجِهِ لِصُورةِ الجُمْجُمةِ صُورةُ جَدْيٍ أَوْ ماعِزٍ صَغيرٍ (وَيُطْلَقُ عَلى الماعِزِ الصَّغيرِ بِاللُّغةِ الإِنْجِليزِيَّةِ كَلِمةُ كيد **Kid**) وَلابُدَّ أَنَّكَ قَدْ سَمِعْتَ عَنْ كابْتِن كيد المَشْهورِ ، فَأَدْرَكْتُ عَلى الفَوْرِ أَنَّ صُورةَ الجَدْيِ إِنَّما هِيَ تَوْقيعُ الكابْتِن كيد نَفْسِهِ . وَمِمّا جَعَلَني أَقولُ إِنَّها تَوْقيعُهُ أَنَّ مَكانَ الصُّورةِ في أَسْفَلِ قِطْعَةِ الجِلْدِ عَلى اليَمينِ يُوحي بِذٰلِكَ بِدَرَجةٍ كَبيرةٍ – كَما أَنَّهُ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ نَعْتَبِرَ الجُمْجُمةَ المَرْسومةَ أَعْلى القِطْعةِ خَتْمًا رَسْمِيًّا . »

سَأَلْتُهُ : « وَلٰكِنْ هَلْ كانَتْ هُناكَ أَيُّ رِسالةٍ بَيْنَ الخَتْمِ وَالتَّوْقيعِ ؟ »

أَجابَ : « لا ، لَمْ تَكُنْ هُناكَ أَيُّ رِسالةٍ . وَلٰكِنَّ اعْتِقادي بِوُجودِ كَنْزٍ مَدْفونٍ في مَكانٍ قَريبٍ حَفَزَني إِلى أَنْ أَسْتَمِرَّ في التَّجْرِبةِ دونَ إِبْطاءٍ . فَأَضَفْتُ مَزيدًا مِنَ الخَشَبِ لِنارِ المِدْفأةِ ، وَسَخَّنْتُ بَعْضَ الماءِ ثُمَّ غَسَلْتُ قِطْعَةَ الجِلْدِ بِعِنايةٍ . فَقَدْ كانَتْ عَلى قِطْعَةِ الجِلْدِ طَبَقةٌ مِنَ الأَوْساخِ . وَقُلْتُ في نَفْسي إِنَّ هٰذا هُوَ سَبَبُ عَدَمِ ظُهورِ أَيِّ كِتابةٍ . وَعِنْدَما تَرَكْتُ القِطْعةَ لِتَجِفَّ أَخَذْتُ أُفَكِّرُ في كابْتِن كيد وَالكَنْزِ الَّذي قيلَ إِنَّهُ دَفَنَهُ في مَكانٍ ما عَلى هٰذا السّاحِلِ . لَقَدْ كانَ قُرْصانًا جَسورًا وَمُوَفَّقًا في غاراتِهِ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ بَعْضُ الصِّدْقِ فيما دارَ مِنْ أَقاصيصَ حَوْلَ ثَرْوَتِهِ المُخَبَّأةِ لَما اسْتَمَرَّتْ تِلْكَ الأَقاصيصُ مُتَداوَلةً عَلى مَرِّ الزَّمَنِ وَبِدونِ انْقِطاعٍ . وَمِمّا يَجْدُرُ بِالمُلاحَظةِ أَنَّ كُلَّ هٰذِهِ القِصَصِ تَدورُ حَوْلَ البَحْثِ عَنِ النُّقودِ لا حَوْلَ العُثورِ عَلَيْها ، وَقَدْ أَوْحى

هٰذا لي بِأَنَّ ٱلذَّهَبَ لا يَزالُ مَدْفونًا . وَقُلْتُ في نَفْسي إِنَّهُ مِنَ ٱلْمُحْتَمَلِ أَنْ تكونَ حادِثَةٌ ما قَدْ وَقَعَتْ – مِثْلُ فِقْدانِ مُذَكِّرَةٍ مَكْتوبٍ فيها مَكانُ ٱلْكَنْزِ – وَأَنَّ هٰذِهِ ٱلْحادِثَةَ قَدْ حالَتْ دونَ عُثورِ كيد أَوْ رِفاقِهِ ٱلْقَراصِنَةِ عَلى ٱلْكَنْزِ مَرَّةً ثانيةً . بَدَأْتُ في تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ أَشْعُرُ بِأَمَلٍ ، وَإِحْساسٍ أَكيدٍ بِأَنَّ قِطْعَةَ ٱلْجِلْدِ ٱلَّتي وَجَدْناها بِهٰذِهِ ٱلْمُصادَفَةِ ٱلْغَريبَةِ هِيَ ٱلْوَثيقَةُ ٱلْمَفْقودَةُ ٱلَّتي تَحْتَوي عَلى وَصْفٍ لِمَكانِ ٱلْكَنْزِ . »

سَأَلْتُهُ : « ماذا فَعَلْتَ بَعْدَ ذٰلِكَ ؟ »

أَجابَ : « وَضَعْتُ قِطْعَةَ ٱلْجِلْدِ في إِناءٍ مِنَ ٱلصَّفيحِ بِحَيْثُ كانَتْ صورَةُ ٱلْجُمْجُمَةِ وَٱلْجَدْيِ إِلى أَسْفَلَ ، ثُمَّ وَضَعْتُ ٱلْإِناءَ عَلى ٱلْخَشَبِ ٱلْمُشْتَعِلِ . وَبَعْدَ دَقائِقَ قَليلَةٍ رَفَعْتُ ٱلْإِناءَ مِنْ عَلى ٱلنّارِ ، وَبَدَأْتُ أَفْحَصُ قِطْعَةَ ٱلْجِلْدِ . وَلَقَدْ أَخَذَني ٱلسُّرورُ كُلَّ مَأْخَذٍ عِنْدَما وَجَدْتُ عَلَيْها ٱلرُّموزَ ٱلَّتي تَراها ٱلْآنَ . »

كانَ لوغران أَثْناءَ حَديثِهِ قَدْ قامَ بِتَسْخينِ قِطْعَةِ ٱلْجِلْدِ وَأَعْطانيها ، وَرَأَيْتُ ٱلرُّموزَ ٱلتّالِيَةَ مَكْتوبَةً بِٱلْحِبْرِ ٱلْأَحْمَرِ بَيْنَ صورَةِ ٱلْجُمْجُمَةِ وَصورَةِ ٱلْجَدْيِ :

«53 ‡‡†305))6*;4826)4‡);806*;
48†§60))85;1‡); :‡*8†83)88)5*†;
46);88*96*?;8)*‡);485);5*†2:*‡)
;4956*2)5*—4)8§8*;4069285);)6†8
)4‡‡;1)‡9;48081;8:8‡1;48†85;4)4
85†528806*81)‡9;48;)88;4)‡?34;48
)4‡;161;:188;‡?;»

قُلْتُ لَهُ وَأَنا أُعيدُ قِطْعَةَ ٱلْجِلْدِ إِلَيْهِ : « هٰذا أَصْعَبُ مِنْ أَنْ أَفْهَمَ لَهُ مَعْنًى . »

قالَ لوغران : « وَمَعَ ذٰلِكَ فَإِنَّ ٱلْحَلَّ لَيْسَ صَعْبًا . ذٰلِكَ أَنَّ كيد–كَما نَعْرِفُ – لَمْ يَكُنْ في غايَةِ ٱلذَّكاءِ . إِنَّ لِكُلٍّ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَرْقامِ وَٱلرُّموزِ مَعْناهُ ، وَكُنْتُ قَدْ تَدَرَّبْتُ مِنْ قَبْلُ عَلى حَلِّ مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْأَلْغازِ مِمّا جَعَلَ مِنَ ٱلسَّهْلِ عَلَيَّ حَلَّ هٰذا ٱللُّغْزِ . فَقَدْ سَبَقَ أَنْ قُمْتُ بِحَلِّ أَلْغازٍ أُخْرى أَصْعَبَ مِنْ هٰذا ٱللُّغْزِ بِأَلْفِ مَرَّةٍ .

« إِنَّ أَوَّلَ سُؤالٍ عَلى ٱلشَّخْصِ أَنْ يَسْأَلَهُ لِنَفْسِهِ هُوَ : ما ٱللُّغَةُ ٱلَّتي كُتِبَتْ بِها هٰذِهِ ٱلرِّسالَةُ ؟ وَلَمْ تَكُنِ ٱلْإِجابَةُ عَنْ هٰذا ٱلسُّؤالِ صَعْبَةً بِالنِّسْبَةِ لِهٰذِهِ ٱلْحالَةِ ، إِذْ إِنَّ رَسْمَ ٱلْجَدْيِ في مَكانِ تَوْقيعِ كيد يَجْعَلُ مِنَ ٱلسَّهْلِ عَلَيْنا أَنْ نَقولَ إِنَّ ٱللُّغَةَ ٱلْمُسْتَخْدَمَةَ هِيَ ٱللُّغَةُ ٱلْإِنجليزِيَّةُ .

« وَٱلْخُطْوَةُ ٱلثّانِيَةُ هِيَ أَنْ يَجِدَ ٱلرَّقْمَ أَوِ ٱلرَّمْزَ ٱلَّذي يَتَكَرَّرُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ في ٱلرِّسالَةِ ، وَقَدْ وَجَدْتُ عَلى ٱلْفَوْرِ أَنَّ ٱلرَّقْمَ 8 هُوَ أَكْثَرُها تَكْرارًا ، وَإِذا كُنْتَ في شَكٍّ مِنْ هٰذا يُمْكِنُكَ أَنْ تَعُدَّها بِنَفْسِكَ . وَإِذا رَجَعْنا إِلى ٱللُّغَةِ ٱلْإِنجليزِيَّةِ وَجَدْنا أَنَّ حَرْفَ e هُوَ أَكْثَرُ ٱلْحُروفِ شُيوعًا . فَلْنَفْتَرِضْ إِذًا أَنَّ ٱلرَّقْمَ 8 ٱلَّذي تَكَرَّرَ ثَلاثًا وَثَلاثينَ مَرَّةً في رِسالَةِ كيد هُوَ ٱلَّذي ٱسْتُخْدِمَ بَدَلًا مِنَ ٱلْحَرْفِ e وَلْنُحاوِلْ بَعْدَ ذٰلِكَ أَنْ نَرى هَلْ كانَ ٱلرَّقْمُ 8 يَظْهَرُ مُزْدَوِجًا ؟ ذٰلِكَ أَنَّ حَرْفَ e كَثيرًا ما يَأْتي مُكَرَّرًا في ٱللُّغَةِ ٱلْإِنجليزِيَّةِ في عَدَدٍ مِنَ ٱلْكَلِماتِ مِثْلِ :

meet, speed, seen, been, agree,...

« وَنَجِدُ بِفَحْصِنا لِهٰذِهِ ٱلرِّسالَةِ أَنَّ رَقْمَ 8 يَأْتي مُكَرَّرًا خَمْسَ مَرّاتٍ عَلى ٱلرَّغْمِ

مِنْ قِصَرِ الرِّسالةِ . وَهٰكذا يُمْكِنُنا أَنْ نقولَ الآنَ وَنَحْنُ على يقينٍ بِأَنَّ الرَّقْمَ 8 يَرْمُزُ إلى الحَرْفِ e .

« وَأَكْثَرُ الكَلِماتِ شُيوعًا في اللُّغةِ الإنجليزيّةِ هِيَ كَلِمةُ The . وَعَلَيْنا الآنَ أَنْ نَبْحَثَ في الرِّسالةِ لِنرى هَلْ هُناكَ مَجْموعاتٌ مِنَ الكَلِماتِ مُكَوَّنةٌ مِنْ ثَلاثةِ رُموزٍ آخِرُها الرَّقْمُ 8 على أَنْ يَكونَ تَرْتيبُ هٰذِهِ الرُّموزِ واحِدًا في الكَلِماتِ جَميعِها ؟ وَبَعْدَ شَيْءٍ مِنَ البَحْثِ نَجِدُ أَنَّ مَجْموعةَ الرُّموزِ (48 ;) تَتَكَرَّرُ بِنَفْسِ هٰذا التَّرْتيبِ سَبْعَ مَرّاتٍ ، وَمِنْ ثَمَّ يُمْكِنُنا أَنْ نَسْتَنْتِجَ أَنَّ مَجْموعةَ الرُّموزِ (48 ;) تُمَثِّلُ الكَلِمةَ The وَعَلَيْهِ فَإِنَّ الرَّمْزَ (;) يُمَثِّلُ حَرْفَ t وَالرَّمْزَ 4 يُمَثِّلُ الحَرْفَ h .

« وَلْنَنْظُرِ الآنَ إلى المَكانِ الَّذي قَبْلَ الأَخيرِ وَتَظْهَرُ فيهِ مَجْموعةُ الرُّموزِ (48 ;) قُرْبَ نِهايةِ الرِّسالةِ . بِإِمْكانِنا أَنْ نَحُلَّ هٰذِهِ الرُّموزَ مُسْتَخْدِمينَ الأَحْرُفَ الثَّلاثةَ الَّتي عَرَفْناها حَتّى الآنَ عَلى النَّحْوِ الآتي : —

; 48 ;) 88 ; 4

the / t. ee / th

« لَدَيْنا هُنا كَلِمةُ The وَبَعْدَها كَلِمتانِ . وَأَقولُ كَلِمتَيْنِ لِأَنَّهُ لا تُوجَدُ في اللُّغةِ الإنجليزيّةِ كَلِمةٌ تَبْدَأُ بِحَرْفِ t وَتَنْتَهي بِحَرْفَيْ th وَتَكونُ مُكَوَّنةً مِنْ سِتّةِ حُروفٍ . عِنْدَما تُجَرِّبُ كُلَّ حُروفِ الأَلِفْباءِ تَجِدُ أَنَّ الحَرْفَ النّاقِصَ هُوَ حَرْفُ r الَّذي يُعْطينا كَلِمةَ tree بِمَعْنى شَجَرةٍ . وَهٰكذا يُمْكِنُ القَوْلُ أَنَّ الرَّمْزَ (يُشيرُ إلى الحَرْفِ r . وَيُمْكِنُنا أَنْ نَسْتَفيدَ كَذٰلِكَ مِنْ مَجْموعةِ الرُّموزِ

(48 ;) إذا قُمْنا بِفَحْصِ مَجْموعةِ الرُّموزِ الآتيةِ وَاسْتَبْدَلْنا بِبَعْضِ الرُّموزِ الحُروفَ الَّتي تُمَثِّلُها : —

; 48;) 88; 4)‡? 34 ; 48

the/ tree/ thr...h/ the

« وَيُمْكِنُ الوُصولُ بِسُهولةٍ إلى مَعْرِفةِ أَنَّ الأَحْرُفَ الثَّلاثةَ النّاقِصةَ هِيَ oug لِتُعْطينا كَلِمةَ through بِمَعْنى خِلالَ أَوْ وَسَطَ ؛ وَهٰكذا نَكونُ قَدْ تَوَصَّلْنا إلى مَعْرِفةِ ثَلاثةِ أَحْرُفٍ جَديدةٍ هِيَ o u g وَتُمَثِّلُها ; ?3 ‡ .

« وَواصَلْتُ بَحْثي عَلى هٰذا النَّحْوِ كَيْ أَصِلَ إلى مَعْرِفةِ الرُّموزِ المُسْتَخْدَمةِ مَكانَ باقي الحُروفِ مُسْتَفيدًا كُلَّ الاستفادةِ بِالحُروفِ الَّتي أَمْكَنَني مَعْرِفَتُها . فَكَتَبْتُ عَلى سَبيلِ المِثالِ المَجْموعةَ : —

† 83) 88

.egree

المَوْجودةَ قُرْبَ بِدايةِ الرِّسالةِ ، وَأَمْكَنَني بِسُهولةٍ أَنْ أَسْتَنْتِجَ أَنَّها تُمَثِّلُ كَلِمةَ degree (دَرَجة) وَبِذٰلِكَ عَرَفْتُ أَنَّ الرَّمْزَ † يَحِلُّ مَحَلَّ الحَرْفِ d .

« لَيْسَ مِنَ الضَّروريِّ أَنْ أَسْتَطْرِدَ أَكْثَرَ مِنْ هٰذا في إيضاحِ الطَّريقةِ الَّتي اسْتَخْدَمْتُها في حَلِّ هٰذِهِ الرِّسالةِ الشَّفْريّةِ . فَقَدْ ذَكَرْتُ ما فيهِ الكِفايةُ لِإيضاحِ الأُسْلوبِ الَّذي يُمْكِنُ اسْتِخْدامُهُ لِحَلِّها وَلِأُوَضِّحَ لَكَ أَنَّ هٰذا اللُّغْزَ بِالذّاتِ لَمْ يَكُنْ صَعْبًا . وَلٰكِنْ عِنْدَما قُمْتُ بِتَرْجَمةِ رِسالةِ كيد تَرْجَمةً عَمَليّةً كانَ عَلَيَّ أَنْ أَقومَ بِتَصْحيحِ خَطَإٍ أَوْ خَطَأَيْنِ مُسْتَخْدِمًا مَعْرِفَتي بِهٰذِهِ المِنْطَقةِ . وَإِلَيْكَ تَرْجَمَتي لِلرِّسالةِ : —

« زُجاجةٌ جَيِّدةٌ في قَلْعةِ بيسوب بِمَقْعَدِ ٱلشَّيْطانِ – واحِدٌ وَأَرْبَعونَ دَرجةً – ٱلشَّمالُ ٱلشَّرْقيُّ وَشمالًا – ٱلفَرْعُ ٱلرَّئيسيُّ لِلشَّجرةِ – ٱلطَّرَفُ ٱلسّابعُ إلى جِهةِ ٱلشَّرْقِ – اقْذِفْ مِنَ ٱلعَيْنِ ٱليُسْرى لِلْجُمْجُمةِ – خَطٌّ مِنَ ٱلشَّجرةِ إلى مَكانِ ٱلقَذْفِ – خَمْسونَ قَدَمًا إلى الخارِجِ . »

« كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ عَنْ عائلةٍ بِٱسمِ بيسوب ، وَكانَتْ تِلْكَ ٱلعائلةُ مِنْ أَكْبَرِ مُلّاكِ ٱلأَراضي في تِلْكَ ٱلمِنْطَقةِ في الماضي . فَقُمْتُ بِعَمَلِ ٱستِفساراتٍ دَقيقةٍ بَيْنَ كِبارِ ٱلسِّنِّ بِتِلْكَ ٱلنّاحيةِ ، وَأَخيرًا قابَلْتُ ٱمرأةً طاعِنةً في ٱلسِّنِّ كانَتْ تَقومُ بِخِدْمةِ تِلْكَ ٱلعائلةِ مُنْذُ عِدّةِ سِنينَ . وَعَرَفْتُ مِنها أَنَّها كانَتْ تَسْمَعُ بِٱلمَكانِ ٱلَّذي يُطْلَقُ عَلَيْهِ ٱسمُ ٱلقَلْعةِ ، وَقالَتْ إنَّ في وُسْعِها أَنْ تَقودَني إلَيْهِ ، وَأَضافَتْ إنَّ ٱلمَكانَ لَمْ يَكُنْ قلعةً عَلى ٱلإِطْلاقِ بَلْ صَخْرةً عاليةً .

« وَجَدْنا ٱلمَكانَ بِدُونِ صُعوبةٍ ، وَهُوَ مَجموعةٌ غَيْرُ مُنْتَظِمةٍ مِنَ ٱلمُنْحَدراتِ ٱلجَبَليّةِ وَٱلصُّخورِ ، وَكانَتْ إحْدى تِلْكَ ٱلصُّخورِ أَعْلى بِكَثيرٍ مِنَ ٱلصُّخورِ ٱلأُخرى مِمّا جَعَلَ شَكْلَها العامَّ يُشْبِهُ بُرْجَ ٱلقَلْعةِ . فَتَسَلَّقْتُ تِلْكَ ٱلصَّخْرةَ حَتّى قِمَّتِها وَجَلَسْتُ هُناكَ أُفَكِّرُ فيما يُمْكِنُ عَمَلُهُ بَعْدَ ذٰلِكَ .

« وَسَرْعانَ ما وَقَعَتْ عَيْناي عَلى بُروزٍ صَخْريٍّ يَقَعُ عَلى بُعْدِ مِتْرٍ تَحْتَ ٱلمَكانِ ٱلَّذي أَجْلِسُ عَلَيْهِ . وَكانَ شَكْلُهُ يُشْبِهُ ٱلكُرْسيَّ شَبَهًا كامِلًا بِظَهْرِهِ وَمَقْعَدِهِ . وَلَمْ يَبْقَ عِنْدي أَيُّ شَكٍّ أَنَّ هٰذا هُوَ « مَقْعَدُ ٱلشَّيْطانِ » ٱلَّذي جاءَ ذِكْرُهُ في ٱلرِّسالةِ ، فَنَزَلْتُ إلَيْهِ وَوَجَدْتُ أَنَّهُ مِنَ ٱلمُسْتَحيلِ ٱلجُلوسُ عَلَيْهِ إلّا في وَضْعٍ واحِدٍ مُحَدَّدٍ . وَأَدْرَكْتُ فَجْأةً السِّرَّ ٱلكامِلَ ٱلَّذي تُشيرُ إلَيْهِ ٱلرِّسالةُ .

« إنَّ عِبارةَ (زُجاجةٌ جَيِّدةٌ) ٱلَّتي بِالرِّسالةِ لا تَعْني زُجاجةَ شَرابٍ أَبدًا ، وَإنّما تَعْني زُجاجةَ ٱلبَحّارِ أَوِ ٱلتِّلِسْكوب . وَأَنَّ مِنَ الواجِبِ ٱستِخْدامَ ٱلتِّلِسْكوب وَأَنْتَ جالِسٌ عَلى مَقْعَدِ ٱلشَّيْطانِ في ذٰلِكَ ٱلوَضْعِ ٱلوَحيدِ ٱلَّذي يَسْمَحُ بِهِ ٱلمَقْعَدُ . وَٱتَّضَحَ لي أَيْضًا أَنَّ عِبارةَ (واحِدٌ وَأَرْبَعونَ دَرجةً – ٱلشَّمالُ ٱلشَّرْقيُّ وَشمالًا) إنَّما تَدُلُّ عَلى تَوْجيهاتٍ خاصَّةٍ بِٱلمَكانِ ٱلَّذي خُبِّئَ فيهِ ٱلتِّلِسْكوب . وَزادَتْ هٰذِهِ ٱلاستِنْتاجاتُ مِنْ تَوَتُّرِ أَعْصابي ، فَأَسْرَعْتُ إلى ٱلبَيْتِ وَأَحْضَرْتُ تِلِسْكوبي ثُمَّ رَجَعْتُ ثانيةً إلى ٱلصَّخْرةِ .

« حَدَّدْتُ زاويةَ ٱلرُّؤْيةِ بِأَقْصى دِقّةٍ مُمْكِنةٍ مُسْتَخْدِمًا ٱتِّجاهَ ٱلشَّمْسِ في تِلْكَ ٱلسّاعةِ مِنَ ٱلنَّهارِ ، وَبَدَأْتُ أُحَرِّكُ ٱلتِّلِسْكوب بِبُطْءٍ إلى أَعْلى وَإلى أَسْفَلَ . وَأَخيرًا جَذَبَتِ ٱنتِباهي فُتْحةٌ دائريَّةٌ في أَعْلى شَجَرةٍ كَبيرةٍ بَعيدةٍ ، وَفي وَسَطِ تِلْكَ ٱلفُتْحةِ رَأَيْتُ شَيْئًا يَميلُ إلى ٱلبَياضِ ، وَعِنْدَ ما دَقَّقْتُ ٱلنَّظَرَ أَدْرَكْتُ أَنَّ هٰذا ٱلشَّيْءَ ما هُوَ إلّا جُمْجُمةٌ آدَميَّةٌ .

« لَقَدِ ٱتَّضَحَ لي كُلُّ شَيْءٍ . وَكانَ عَلَيَّ آنَذاكَ أَنْ أَصِلَ إلى هٰذِهِ ٱلجُمْجُمةِ ٱلَّتي تُوجَدُ في ٱلفَرْعِ ٱلرَّئيسيِّ لِلشَّجَرةِ بِالطَّرَفِ ٱلسّابعِ إلى جِهةِ ٱلشَّرْقِ . وَعَلَيَّ أَنْ أَقْذِفَ أَوْ أُسْقِطَ شَيْئًا مِنَ ٱلعَيْنِ ٱليُسْرى لِلْجُمْجُمةِ إلى ٱلأَرْضِ ، ثُمَّ أَرْسُمَ خَطًّا مِنَ ٱلشَّجَرةِ إلى ٱلمَكانِ ٱلَّذي وَقَعَ فيهِ ٱلشَّيْءُ ٱلَّذي أَسْقَطْتُهُ ، ثُمَّ أَتَّجِهَ بِهٰذا ٱلخَطِّ إلى ٱلخارِجِ لِمَسافةِ خَمْسينَ قَدَمًا أَوْ سِتَّةَ عَشَرَ مِتْرًا وَنِصْفَ ٱلمِتْرِ تَقْريبًا . وَقُلْتُ في نَفْسي إنَّهُ مِنَ ٱلمُحْتَمَلِ أَنْ يَكونَ ٱلكَنْزُ مَدْفونًا تَحْتَ هٰذِهِ ٱلنُّقْطةِ .

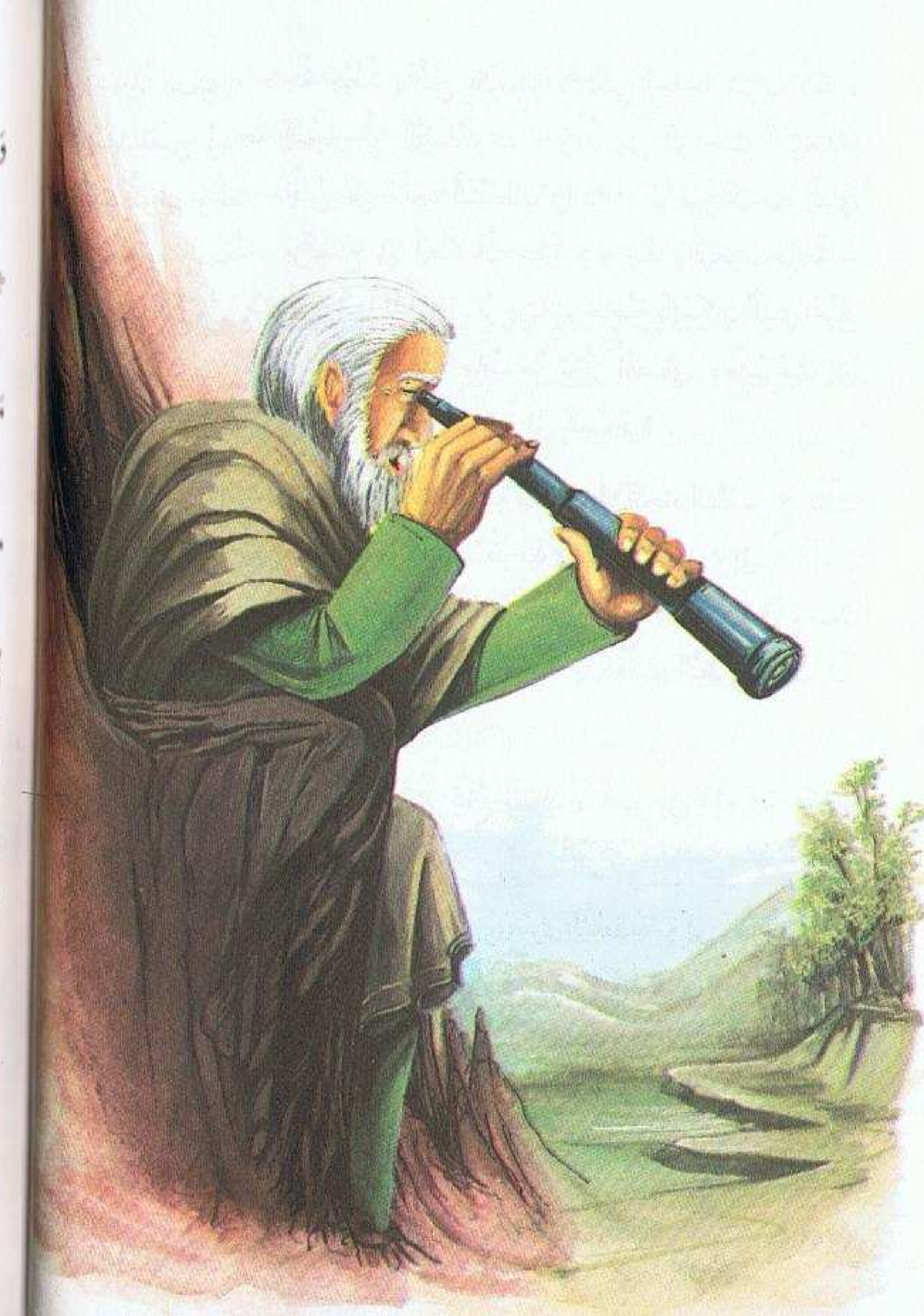
« في اليَوْمِ التّالي وَجَدْتُ الشَّجرةَ بِشَيْءٍ مِنَ الصُّعوبةِ ، ثُمَّ أُرسَلْتُ إلَيْكَ وأَنْتَ تَعْرِفُ باقيَ المُغامَرةِ كَما أَعْرِفُها أنا . »

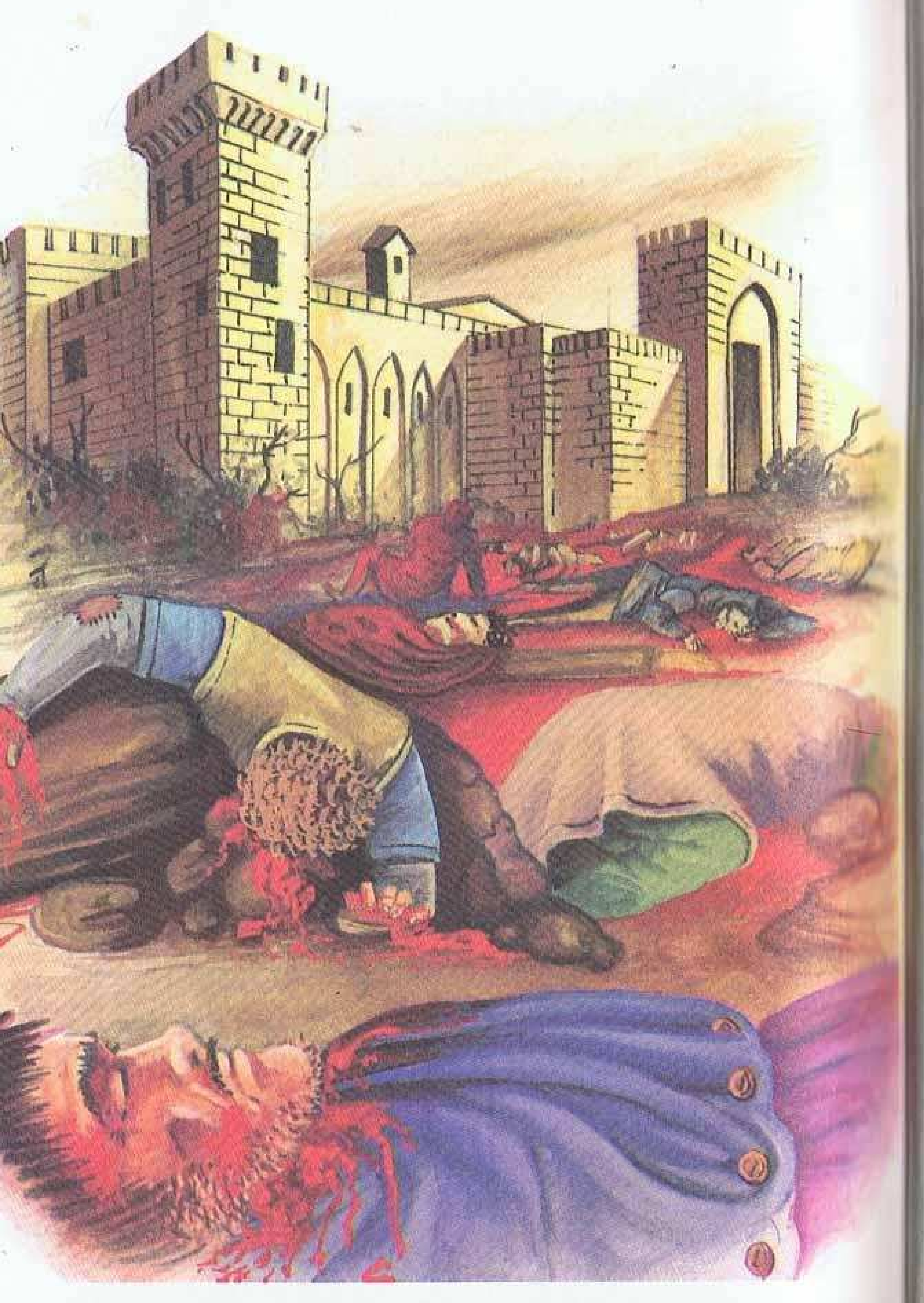
قُلْتُ : « أَعْتَقِدُ أَنَّ سَبَبَ الخَطَإِ في مُحاوَلَتِنا الأُولى راجِعٌ إلى غَباءِ جوبيتر عِنْدَما جَعَلَ الحَشَرَةَ تَسْقُطُ مِنَ العَيْنِ اليُمْنى بَدَلًا مِنَ العَيْنِ اليُسْرى . »

قالَ : « بِالضَّبْطِ ! إنَّ هٰذا الخَطَأَ جَعَلَنا نَحْفِرُ عَلى بُعْدِ مِتْرَيْنِ تَقْريبًا مِن مَكانِ وُجودِ الكَنْزِ . »

قُلْتُ : « نَعَمْ ، أَنا أُدْرِكُ ذٰلِكَ ، وَالآنَ هُناكَ شَيْءٌ واحِدٌ ما زالَ يُحَيِّرُني . ما هُوَ في رَأْيِكَ سَبَبُ وُجودِ العِظامِ في الحُفْرَةِ ؟ »

أَجابَ : « إنَّني لا أَجِدُ إلَّا سَبَبًا واحِدًا لِذٰلِكَ . وَمَعَ ذٰلِكَ فَمِنَ العَسيرِ أَنْ يُصَدِّقَ الشَّخْصُ بِوُجودِ مِثْلِ تِلْكَ القَسْوَةِ . لا بُدَّ أَنَّ كِيد استَعانَ بِآخَرينَ عِنْدَ إخْفائِهِ الكَنْزَ . وَعِنْدَما فَرَغوا مِنَ العَمَلِيَّةِ لا بُدَّ أَنَّهُ رَأى مِنَ الأَفْضَلِ أَلّا يُشارِكَهُ في هٰذا السِّرِّ أَحَدٌ ، وَيَكْفي لِحِفْظِ السِّرِّ أَنْ يُطْلِقَ طَلْقَتَيْنِ عَلى الرَّجُلَيْنِ وَهُما مُنْهَمِكانِ في عَمَلِهِما بِالحُفْرَةِ . رُبَّما كانَ الأَمْرُ يَحْتاجُ إلى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ طَلْقَةً – مَنْ يَدْري ؟ »





اَلْمَوْتُ اَلْأَحْمَرُ

قَتَلَ « الْمَوْتُ اَلْأَحْمَرُ » آلافَ اَلْأَشْخاصِ ، وَلَمْ يَحْدُثْ قَطُّ أَنْ كانَ لِمَرَضٍ مِثْلُ شَراسَتِهِ .

كانَ اَلدَّمُ سِمَتَهُ اَلْمُمَيِّزَةَ . فَقَدْ كانَ اَلْمُصابُ يَشْعُرُ بِآلامٍ حادَّةٍ ثُمَّ يُعاني مِنْ إغماءةٍ مُفاجِئَةٍ ، وَتَنْزِفُ اَلدِّماءُ مِنْ جِلْدِهِ ، وَسُرْعانَ ما يَلْفِظُ أَنْفاسَهُ في أَقَلَّ مِنْ نِصْفِ اَلسّاعَةِ . وَكانَتِ اَلْبُقَعُ اَلْحَمْراءُ اَلَّتي تَنْتَشِرُ في جِسْمِ اَلْمَريضِ وَبِخاصَّةٍ عَلى وَجْهِهِ تَحولُ دونَ قِيامِ اَلآخَرينَ بِنَجْدَتِهِ . وَعِنْدَما تَظْهَرُ تِلْكَ اَلْبُقَعُ عَلى اَلْمَريضِ فَإِنَّ ذٰلِكَ يَعْني ضَياعَ أَيِّ أَمَلٍ في شِفائِهِ .

لٰكِنَّ اَلْأَميرَ بْرُوسْپِرُو كانَ سَعيدًا وَشُجاعًا وَحَكيمًا . فَبَعْدَ أَنْ ماتَ نِصْفُ شَعْبِهِ ، دَعا أَلْفًا مِنَ اَللّوردات وَكَرائِمِ اَلسَّيِّداتِ اَلَّذينَ يَتَمَتَّعونَ بِصِحَّةٍ جَيِّدَةٍ ، وَذَهَبَ مَعَهُمْ لِيَعيشوا جَميعًا في قَلْعَةٍ قاصِيَةٍ . كانَتْ مَباني اَلْقَلْعَةِ اَلضَّخْمَةِ وَالْأَراضي اَلْفَسيحَةُ اَلْمُحيطَةُ بِها تَقَعُ وَراءَ جُدْرانٍ ضَخْمَةٍ عالِيَةٍ ، وَكانَتْ لِتِلْكَ اَلْجُدْرانِ أَبْوابٌ حَديدِيَّةٌ . وَبَعْدَ أَنْ دَخَلوا مِنْ تِلْكَ اَلْأَبْوابِ قاموا بِصَهْرِ أَقْفالِها حَتّى يَتَأَكَّدوا مِنْ أَنَّها لَنْ تُفْتَحَ ثانِيَةً مَهْما كانَ نَوْعُ اَلْمَفاتيحِ اَلَّتي تُسْتَخْدَمُ في فَتْحِها .

وَهٰكَذا لَمْ يَكُنْ في وُسْعِ أَحَدٍ أَنْ يَدْخُلَ إلى اَلْقَلْعَةِ أَوْ يَخْرُجَ مِنْها . وَكانَ اَلْأَميرُ قَدْ أَمَدَّها بِالطَّعامِ اَلْكافي حَتّى يَظَلَّ هُوَ وَرِجالُهُ اَللّوردات هُناكَ بِمَأْمَنٍ مِنَ اَلْمَرَضِ اَلْخَطِرِ . وَلْيَهْتَمَّ كُلُّ مَنْ هُوَ خارِجَ أَسْوارِ اَلْقَلْعَةِ بِنَفْسِهِ ، أَمّا

بِالنِّسْبةِ لَهُ فَقَدْ كانَ مِنَ ٱلحماقةِ أَنْ يَقْلَقَ أَوْ تُساوِرَهُ ٱلأَفْكارُ وَٱلهُمومُ . وَكانَ ٱلأَميرُ قَدْ أَعَدَّ عُدَّتَهُ لِيَحْيا حياةً مِلْؤُها ٱللَّذَّةُ وَٱلبَهْجةُ . فَقَدْ جاءَ إلى ٱلقَلْعةِ بِٱلمُمَثِّلينَ وَعازِفي ٱلموسيقى ، أَمَّا خارِجَها فَقَدْ كانَ هُناكَ « ٱلمَوْتُ ٱلأَحْمَرُ » .

بَعْدَ أَنْ قَضى رِجالُ ٱلبَلاطِ خَمْسَةَ أَشْهُرٍ أَوْ سِتَّةً بِٱلقَلْعةِ ، وَكانَ ٱلمَرَضُ خارِجَها قَدْ بَلَغَ ذُرْوَتَهُ ، دَعا ٱلأَميرُ بْروسْپِرو أَصْدِقاءَهُ ٱلأَلْفَ إلى حَفْلٍ راقِصٍ كَبيرٍ ، وَأُعِدَّتِ ٱلتَّرْتيباتُ لِكَيْ يَكونَ هٰذا ٱلحَفْلُ أَرْوَعَ ٱحتِفالاتِ ٱلعامِ ، وَأَنْ يَقومَ ٱلمُشْتَرِكونَ في ٱلرَّقْصِ بِٱرتِداءِ ٱلأَقْنِعةِ . وَقَدْ أُعِدَّتْ سَبْعُ غُرَفٍ مِنْ أَجْمَلِ غُرَفِ ٱلقَلْعةِ إعْدادًا خاصًّا لِهٰذِهِ ٱلمُناسَبةِ . وَكانَتْ تِلْكَ ٱلغُرَفُ ذاتَ شَكْلٍ غَيْرِ مُنْتَظِمٍ عِنْدَ أَحَدِ أَرْكانِ ٱلمَبْنى ، بِحَيْثُ تَكونُ هُناكَ زاوِيةٌ حادَّةٌ بَيْنَ كُلِّ غُرْفةٍ وَٱلغُرْفةِ ٱلمُجاوِرةِ لَها ، مِمَّا يَجْعَلُ مِنْ غَيْرِ ٱلمُمْكِنِ أَنْ يَرى ٱلشَّخْصُ أَكْثَرَ مِنْ غُرْفةٍ في وَقْتٍ واحِدٍ .وَكانَ طِلاءُ كُلِّ غُرْفةٍ وَأَثاثُها وَزَخارِفُها تَخْتَلِفُ عَنِ ٱلغُرَفِ ٱلأُخرى ، وَكانَتِ ٱلنَّوافِذُ مِنَ ٱلزُّجاجِ ٱلمُلَوَّنِ ٱلَّذي يُوافِقُ لَوْنَ ٱلغُرْفةِ . وَهٰكَذا كانَتِ ٱلغُرْفةُ ٱلشَّرْقيَّةُ ذاتَ لَوْنٍ أَزْرَقَ ، وَكانَ لَوْنُ نوافِذِها أَزْرَقَ لامِعًا . أَمَّا ٱلغُرْفةُ ٱلثّانيةُ فَكانَ لَوْنُها أُرْجُوانيًّا ، وَكَذا كانَ لَوْنُ زُجاجِ نَوافِذِها . وَكانَتِ ٱلغُرْفةُ ٱلثّالِثةُ خَضْراءَ ٱللَّوْنِ ، وَٱلرّابِعةُ صَفْراءَ ، وَٱلخامِسةُ بُرْتُقاليَّةَ ٱللَّوْنِ ، وَٱلسّادِسةُ بَيْضاءَ . أَمَّا ٱلغُرْفةُ ٱلسّابِعةُ فَكانَتْ سَوْداءَ ٱللَّوْنِ . وَلٰكِنَّ نَوافِذَها كانَتْ مِنْ لَوْنٍ مُخْتَلِفٍ . لَقَدْ كانَتِ ٱلنَّوافِذَ ٱلوَحيدةَ ٱلَّتي لا يُوافِقُ لَوْنُها لَوْنَ ٱلغُرْفةِ ، فَقَدْ كانَ لَوْنُ ٱلزُّجاجِ هُناكَ أَحْمَرَ ... كانَ مِنْ ذٰلِكَ ٱللَّوْنِ ٱلأَحْمَرِ القاني ٱلَّذي هُوَ في حُمْرةِ ٱلدَّمِ .

لَمْ تَكُنْ ثَمَّةَ أَضْواءٌ أَوْ مَصابيحُ بِأَيٍّ مِنْ هٰذِهِ ٱلغُرَفِ ، لٰكِنْ أُوقِدَتِ ٱلنِّيرانُ خارِجَ ٱلنَّوافِذِ ٱلزُّجاجيَّةِ ، مِمّا جَعَلَ أَشِعَّتَها تَخْتَرِقُ ٱلزُّجاجَ ٱلمُلَوَّنَ إلى داخِلِ ٱلغُرْفةِ مُحْدِثةً أَشْكالًا وَخَيالاتٍ غَريبةً . أَمّا في ٱلغُرْفةِ ٱلسَّوْداءِ فَإنَّ تَأْثيرَ ٱلأَضْواءِ ٱلمُنْبَعِثةِ مِنَ ٱلنِّيرانِ ٱلخارِجيَّةِ وَٱلَّتي تَلْمَعُ عَلى ٱلزُّجاجِ ٱلأَحْمَرِ كانَ مُرْعِبًا لِلْغايةِ . وَلِهٰذا فَإنَّ ٱلقَليلينَ مِنَ ٱلمُحْتَفِلينَ هُمُ ٱلَّذينَ كانَ لَهُمْ مِنَ ٱلجُرْأةِ ما يَجْعَلُهُمْ قادِرينَ عَلى دُخولِ تِلْكَ ٱلغُرْفةِ .

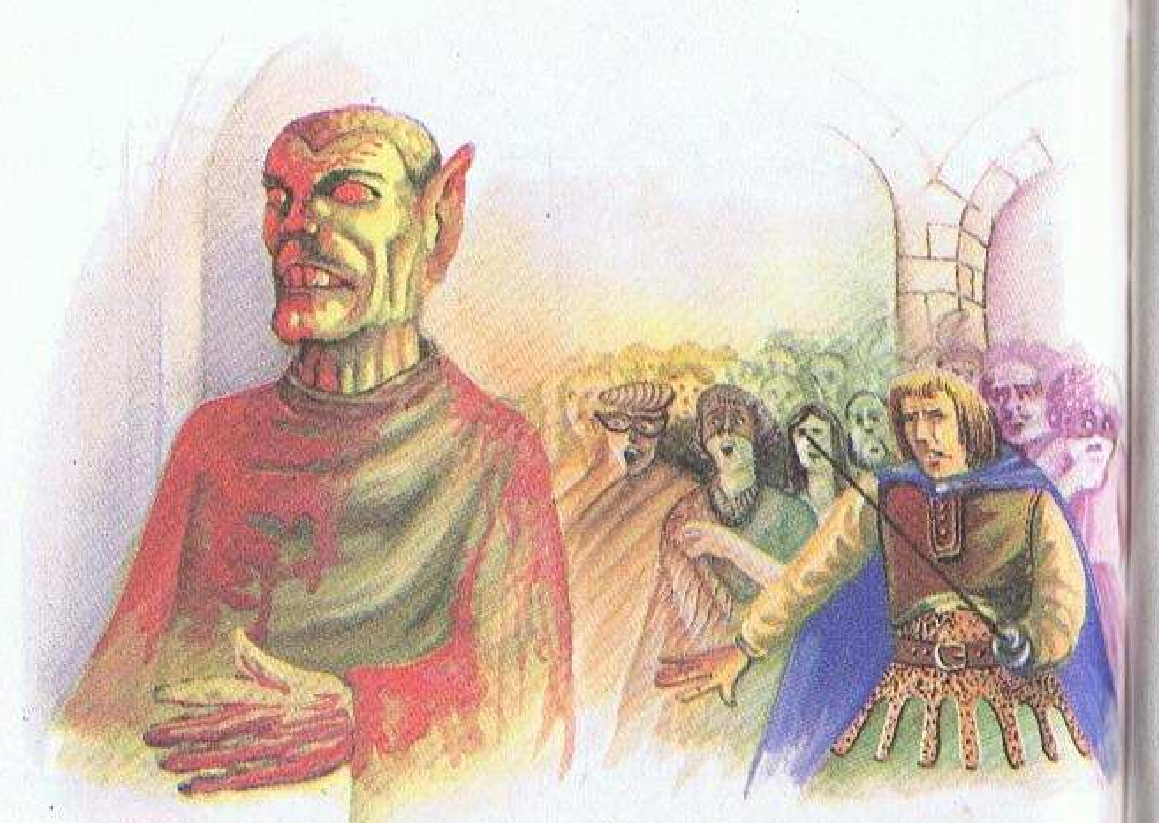
كانَ بِتِلْكَ ٱلغُرْفةِ ٱلسَّوْداءِ إلى جِوارِ ٱلحائِطِ ٱلغَرْبيِّ ، ساعةٌ ضَخْمةٌ مِنَ ٱلخَشَبِ ٱلأَسْوَدِ . وَكُلَّما حانَ ٱلوَقْتُ ٱلَّذي تَدُقُّ فيهِ تِلْكَ ٱلسّاعةُ كانَتْ تُصْدِرُ صَوْتًا موسيقيًّا واضِحًا عالِيًا وَعَميقًا ، وَلٰكِنَّهُ كانَ مِنَ ٱلغَرابةِ بِدَرَجةٍ تَجْعَلُ ٱلموسيقيِّينَ يَتَوَقَّفونَ عَنِ ٱلعَزْفِ كَيْ يُنْصِتوا إلَيْهِ . وَهٰكَذا كانَ ٱلرَّقْصُ يَتَوَقَّفُ وَيَحْدُثُ شَيْءٌ مِنَ ٱلهَرْجِ وَٱلارْتِباكِ في صُفوفِ تِلْكَ ٱلجَماعةِ ٱلمَرِحةِ . ثُمَّ إذا ما دَقَّتِ ٱلسّاعةُ دَقَّتَها ٱلأَخيرةَ سَرَتْ ضَحْكةٌ خَفيفةٌ بَيْنَ ٱلمُحْتَفِلينَ ، وَنَظَرَ ٱلموسيقيّونَ بَعْضُهُمْ إلى ٱلبَعْضِ وَتَبَسَّموا وَكَأَنَّما يَسْخَرونَ مِنْ حَماقَتِهِمْ ، وَيَقولونَ إنَّهُمْ لَنْ يَسْمَحوا بَعْدَ ذٰلِكَ لِدَقّاتِ ٱلسّاعةِ أَنْ تَتَدَخَّلَ وَتُوقِفَ عَزْفَهُمْ في ٱلسّاعةِ ٱلتّاليةِ . وَلٰكِنْ يَحْدُثُ بَعْدَ ساعةٍ أَنْ يَتَوَقَّفوا مَرَّةً أُخْرى ، وَأَنْ يَكونَ ذٰلِكَ ٱلهَرْجُ وَٱلارْتِباكُ ٱلَّذي حَدَثَ مِنْ قَبْلُ .

عَلى ٱلرَّغْمِ مِنْ هٰذا كانَ حَفْلًا مَرِحًا . وَكانَتْ مَلابِسُ ٱلسَّيِّداتِ تَتَّسِمُ بِٱلجَمالِ وَالابتِكارِ ، وَمَلابِسُ ٱلرِّجالِ بِالأَلْوانِ ٱلزّاهيةِ وَٱلخَيالِ ٱلجامِحِ . فَقَدْ

كانَ مَظْهَرُ بَعْضِ ٱلرِّجالِ يَبْدو مُرْعِبًا ، وَمَظْهَرُ عَدَدٍ قَليلٍ مِنْهُمْ مُثيرًا لِلاشْمِئزازِ . وَهٰكذا كانَ ٱلرَّاقِصونَ وَٱلرَّاقِصاتُ يَجُولونَ هُنا وَهُناكَ في ٱلغُرَفِ ٱلسَّبْعِ وَكَأَنَّهُمْ أَشْباحٌ في حُلْمٍ . وَكانَتْ حَرَكاتُهُمْ مُتَناغِمَةً مَعَ ٱلموسيقى كَما كانَتْ أَلْوانُهُمْ تَتَغَيَّرُ مِنْ غُرْفَةٍ إِلى غُرْفَةٍ . وَكانَ مِنَ ٱلمُلاحَظِ أَنَّهُ لَمْ يَقْتَرِبْ مِنَ ٱلغُرْفَةِ ٱلسّابِعَةِ — في ٱلجُزْءِ ٱلأَخيرِ مِنَ ٱللَّيْلِ — إِلَّا عَدَدٌ قَليلٌ مِنَ ٱلمُحْتَفِلينَ . وَأَخَذَ هٰذا ٱلعَدَدُ يَتَناقَصُ تَدْريجِيًّا خَوْفًا مِنْ ذٰلِكَ ٱللَّوْنِ ٱلأَسْوَدِ ٱلَّذي كانَتْ تُضيئُهُ أَشِعَّةٌ حَمْراءُ في لَوْنِ ٱلدَّمِ ٱلقاني .

أَخيرًا بَدَأَتِ ٱلسّاعَةُ ٱلضَّخْمَةُ ٱلمَوْجودةُ في تِلْكَ ٱلغُرْفَةِ تَدُقُّ مُعْلِنَةً مُنْتَصَفَ ٱللَّيْلِ ، فَتَوَقَّفَ ٱلرَّقْصُ كَما سَبَقَ أَنْ ذَكَرْتُ وَوَقَفَ ٱلرَّاقِصونَ في أَماكِنِهِمْ مِنْ دُونِ حَراكٍ ، وَسادَ ٱلجَميعَ شُعورٌ بِعَدَمِ ٱلارْتِياحِ . وَقَبْلَ ٱلدَّقَّةِ ٱلثّانِيَةَ عَشْرَةَ كانَ عَدَدٌ مِنَ ٱلرَّاقِصينَ ٱليَقِظينَ قَدْ لاحَظوا وُجودَ شَخْصٍ مُلَثَّمٍ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ قَدْ رَآهُ مِنْ قَبْلُ . وَأَحْدَثَ ظُهورُهُ هَمَساتٍ تَنُمُّ عَنِ ٱلدَّهْشَةِ وَٱلكَراهِيَةِ في أَوَّلِ ٱلأَمْرِ ، ثُمَّ ما لَبِثَتْ هٰذِهِ ٱلهَمَساتُ أَنْ تَحَوَّلَتْ إِلى صَيْحاتٍ مِنَ ٱلخَوْفِ وَالاشْمِئزازِ .

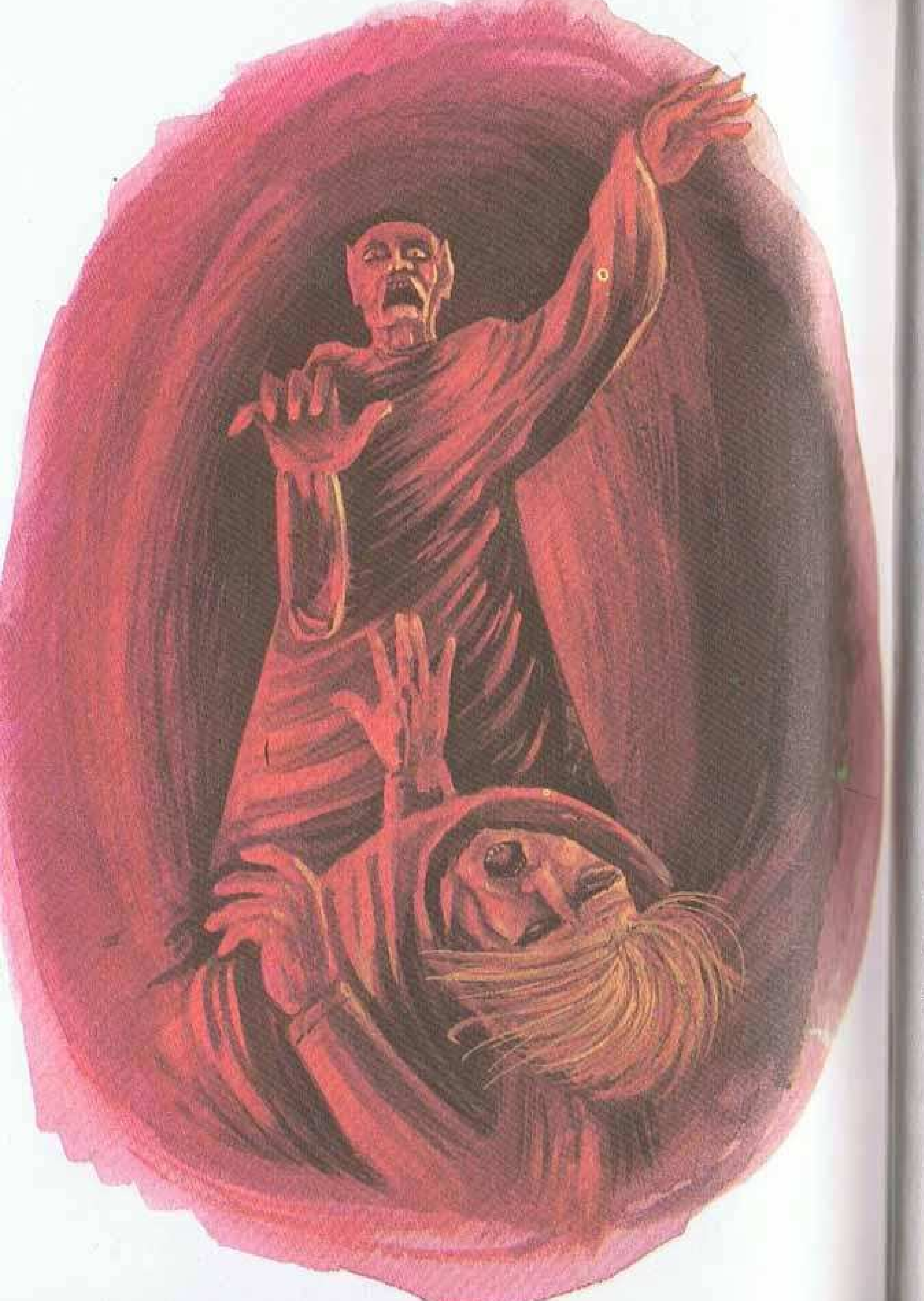
كانَ ذٰلِكَ ٱلمُلَثَّمُ طَويلًا نَحيفًا يَرْتَدي كَفَنًا يُغَطّيهِ مِنْ قِمَّةِ رَأْسِهِ إِلى أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ ، أَمَّا ٱلقِناعُ ٱلَّذي كانَ يُغَطّي وَجْهَهُ فَقَدْ صُنِعَ بِحَيْثُ يَبْدو وَكَأَنَّهُ وَجْهُ مَيْتٍ .. وَكانَ ٱلقِناعُ مِنْ دِقَّةِ ٱلصُّنْعِ بِحَيْثُ لا يُمْكِنُ ٱلتَّفْرِقَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلوَجْهِ ٱلحَقيقيِّ لِشَخْصٍ مُتَوَفًّى . وَمَعَ ذٰلِكَ فَإِنَّ هٰذا لَمْ يَكُنِ ٱلسَّبَبَ ٱلحَقيقيَّ لِاعْتِراضِ ٱلمُحْتَفِلينَ . إِنَّ سَبَبَ كَراهِيَتِهِمْ وَٱشْمِئزازِهِمْ هُوَ أَنَّ هٰذا ٱلشَّخْصَ **ٱلغَريبَ قَدْ قَلَّدَ ٱلمَوْتَ ٱلأَحْمَرَ تَقْليدًا كامِلًا — فَقَدْ كانَ رِداؤُهُ مُلَطَّخًا**



بِالدِّماءِ ، وَكانَ عَلى وَجْهِهِ كُلِّهِ نِقاطُ ٱلمَوْتِ ٱلحَمْراءُ .

عِنْدَما وَقَعَتْ عَيْنا ٱلأَميرِ بْروسْپِرو عَلى ذٰلِكَ ٱلشَّخْصِ ٱلمُخيفِ ٱلَّذي كانَ يَسيرُ بِخُطُواتٍ بَطيئَةٍ مَهيبَةٍ هُنا وَهُناكَ بَيْنَ ٱلرَّاقِصينَ ٱسْتَشاطَ غَضَبًا ، وَصاحَ في ٱلنُّبَلاءِ ٱلواقِفينَ بِالقُرْبِ مِنْهُ قائلًا : « مَنْ هُوَ ذٰلِكَ ٱلَّذي يَجْرُؤُ عَلى إِهانَتِنا عَلى هٰذا ٱلنَّحْوِ ؟ أَمْسِكوا بِهِ وَمَزِّقوا ٱلقِناعَ لِنَرى ذٰلِكَ ٱلشَّخْصَ ٱلَّذي سَوْفَ نُعْدِمُهُ شَنْقًا عِنْدَ طُلوعِ ٱلشَّمْسِ . »

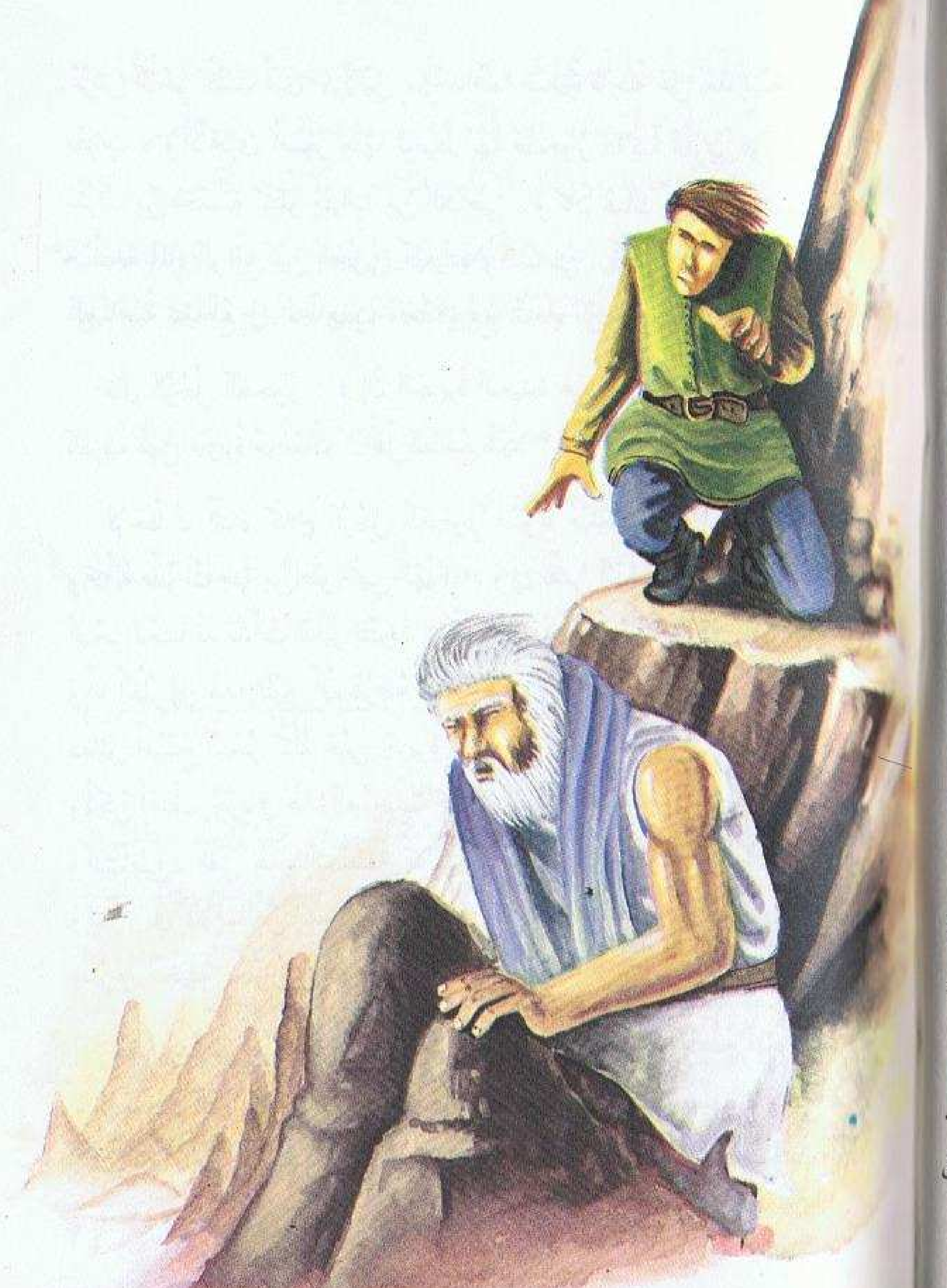
كانَ ٱلأَميرُ واقِفًا في ٱلغُرْفَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ٱلزَّرْقاءِ ، وَكانَ حَوْلَهُ جَماعَةٌ مِنْ أَصْدِقائِهِ . وَبَدَأَتْ تِلْكَ ٱلجَماعَةُ تَتَّجِهُ في أَوَّلِ ٱلأَمْرِ نَحْوَ ذٰلِكَ ٱلشَّخْصِ ٱلغَريبِ ٱلَّذي كانَ عَلى مَقْرُبَةٍ مِنْهُمْ في تِلْكَ ٱلأَثْناءِ . وَلٰكِنْ لَمْ يَرْغَبْ أَحَدٌ مِنْهُمْ



فِي أَنْ يَمُدَّ يَدَهُ لِيُمْسِكَ بِهِ . وَهٰكَذا سارَ أَمامَ ٱلأَميرِ مِنْ دُونِ أَنْ يَعْتَرِضَهُ أَحَدٌ ، وَٱتَّجَهَ مِنَ ٱلغُرْفَةِ ٱلزَّرْقاءِ إِلى ٱلأُرْجُوانِيَّةِ ، وَمِنْها إِلى ٱلخَضْراءِ ثُمَّ ٱلغُرْفَةِ ٱلصَّفْراءِ فَالبُرْتُقالِيَّةِ فَٱلبَيْضاءِ مِنْ دُونِ أَنْ يَتَحَرَّكَ أَحَدٌ لإِيقافِهِ . جُنَّ جُنونُ ٱلأَميرِ بْرُوسْپِرُو وَشَعَرَ بِٱلخَجَلِ لإِحْساسِهِ بِأَنَّهُ قَدْ جَبُنَ عَنْ مُواجَهَتِهِ ، فَٱنْدَفَعَ مُسْرِعًا عَبْرَ ٱلغُرَفِ ٱلسِّتِّ وَٱمْتَشَقَ سَيْفَهُ أَثْناءَ ٱنْدِفاعِهِ ، وَكانَ ٱلشَّخْصُ قَدْ وَصَلَ آنَذاكَ إِلى ٱلحائِطِ ٱلغَرْبِيِّ لِلْغُرْفَةِ ٱلسّابِعَةِ – ٱلغُرْفَةِ ٱلسَّوْداءِ – عِنْدَما ٱسْتَدارَ فَجْأَةً لِمُواجَهَةِ ٱلأَميرِ . أَعْقَبَتْ ذٰلِكَ صَيْحَةٌ عالِيَةٌ وَسَقَطَ سَيْفُ ٱلأَميرِ عَلى ٱلأَرْضِ . وَبَعْدَ لَحَظاتٍ سَقَطَ ٱلأَميرُ بْرُوسْپِرُو مَيْتًا بِجِوارِ سَيْفِهِ .

وَعِنْدَئِذٍ ٱنْدَفَعَ بَعْضُ ٱلنُّبَلاءِ – وَقَدْ أَذْكَتْ حَمِيَّتَهُمْ شَجاعَةٌ يائِسَةٌ – وَأَلْقَوا بِأَنْفُسِهِمْ عَلى ٱلشَّخْصِ ٱلغَريبِ ٱلَّذي وَقَفَ ساكِنًا صامِتًا في ظِلِّ ٱلسّاعَةِ ٱلضَّخْمَةِ ٱلسَّوْداءِ ، وَأَخَذوا يُمَزِّقونَ قِناعَ ٱلمَوْتِ وَٱلرِّداءَ ٱلمُلَطَّخَ بِالدِّماءِ ، وَلٰكِنَّهُمْ تَراجَعوا وَهُمْ يَرْتَعِدونَ مِنَ ٱلخَوْفِ . إِنَّهُمْ لَمْ يَرَوا جَسَدًا آدَمِيًّا داخِلَ ٱلرِّداءِ وَٱلقِناعِ – بَلْ كانَ ٱلقِناعُ وَٱلرِّداءُ فارِغَيْنِ .

وَقَدْ عَرَفوا ٱلآنَ أَنَّ ٱلزّائِرَ هُوَ ٱلمَوْتُ ٱلأَحْمَرُ . لَقَدْ جاءَ كَاللِّصِّ في ظُلْمَةِ ٱلمَساءِ . وَبَدَأَ ٱلرّاقِصونَ يَتَساقَطونَ ٱلواحِدُ تِلْوَ ٱلآخَرِ وَماتوا جَميعًا في غُرْفَةِ ٱللَّذَّةِ تِلْكَ . وَدَقَّتِ ٱلسّاعَةُ ٱلسَّوْداءُ دَقَّةً واحِدَةً ثُمَّ تَوَقَّفَتْ ، وَخَبَتْ أَلْسِنَةُ ٱللَّهَبِ في ٱلخارِجِ ، وَسادَ ٱلظَّلامُ وَٱلتَّعَفُّنُ وَٱلمَوْتُ ٱلأَحْمَرُ كُلَّ شَيْءٍ .



الدُّوّامةُ

وَصَلْنا إلى قِمَّةِ أَعْلَى صَخْرَةٍ ، وَوَقَفْنا نَنْظُرُ إلى ٱلأَمْواجِ ٱلصّاخِبَةِ ٱلمُتَلاطِمَةِ تَحْتَنا ، وَكُنّا عَلى ٱرْتِفاعِ ما يَقْرُبُ مِنْ مِئَتَي مِتْرٍ ، فَوْقَ صُخورِ جُزُرِ لوفوتِن بِٱلنَّرْويج . وَكانَ ٱلرَّجُلُ ٱلعَجوزُ يَلْهَثُ لِما بَذَلَ مِنْ جَهْدٍ ، وَظَلَّ صامِتًا عِدَّةَ دَقائِقَ .

وَأَخيرًا قالَ : « مُنْذُ زَمَنٍ لَيْسَ بِٱلبَعيدِ ، كانَ في وُسْعي أَنْ أَقودَكَ إلى هٰذا ٱلمَكانِ ، مِنْ دونِ أَنْ أَشْعُرَ بِتَعَبٍ ، وَكَأَنّي في خِفَّةِ أَصْغَرِ أَبْنائي . وَلٰكِنْ لَيْسَ ذٰلِكَ هُوَ حالِيَ ٱلآنَ . إِنَّني أَشْعُرُ بِأَنّي مُحَطَّمٌ جَسَدِيًّا وَمَعْنَوِيًّا ، فَقَدْ مَرَرْتُ مُنْذُ ثَلاثِ سَنَواتٍ بِتَجْرِبَةٍ مُفْزِعَةٍ لَمْ يَمُرَّ بِها أَحَدٌ غَيْري ، وَكُتِبَتْ لِيَ ٱلحَياةُ كَيْ أَرْوِيَها لِلنّاسِ . لَقَدْ عانَيْتُ – لِمُدَّةِ سِتِّ ساعاتٍ طِوالٍ – مِنْ أَسْوَإِ أَنْواعِ ٱلخَوْفِ ٱلَّذي يُمْكِنُ تَخَيُّلُهُ . وَخِلالَ تِلْكَ ٱلسّاعاتِ ٱلسِّتِّ أَصْبَحْتُ رَجُلًا عَجوزًا ، وَٱبْيَضَّ شَعْرُ رَأْسي ، وَوَهَنَتْ أَوْصالي ، وَفارَقَتْني شَجاعَتي . وَقَدْ جِئْتُ بِكَ إلى هُنا كَيْ تُشاهِدَ بِعَيْنَيْكَ مَسْرَحَ آلامي ، وَتَسْمَعَ ٱلقِصَّةَ كامِلَةً :

« نَحْنُ ٱلآنَ قَريبونَ كُلَّ ٱلقُرْبِ مِنْ ساحِلِ ٱلنَّرْويج ، وَيُطْلَقُ عَلى هٰذِهِ ٱلصَّخْرَةِ ٱلَّتي نَقِفُ عَلَيْها ٱسْمُ هِلْسِغِن ، أَيِ ٱلغائِمَةُ . اِجْلِسِ ٱلآنَ وَٱنْظُرْ إلى ٱلبَحْرِ . »

كانَ تَحْتَنا ٱمْتِدادٌ واسِعٌ داكِنٌ لِلْمُحيطِ ، وَيَكادُ أَنْ يَكونَ أَسْوَدَ ٱللَّوْنِ . وَعَلى مَرْمى ٱلنَّظَرِ إلى ٱليَسارِ وَٱليَمينِ عِنْدَ ٱلْتِقاءِ تِلْكَ ٱلصُّخورِ بِٱلبَحْرِ ، وَفي

عُرْض ٱلْبَحْرِ كُنْتُ أَرى جَزيرَتَيْنِ ، إِحْداهُما صَغيرةٌ قاحِلةٌ عَلى بُعْدِ تِسْعةِ كيلو مِتْراتٍ ؛ وَٱلأُخْرى أَصْغَرُ مِنْها تُحيطُ بِها صُخورٌ داكِنةُ ٱللَّوْنِ عَلى بُعْدِ ما يَقْرُبُ مِنْ خَمْسةِ كيلو مِتْراتٍ مِنَ ٱلشّاطِئِ . وَكانَ هُناكَ شَيْءٌ غَيْرُ عاديٍّ في صَفْحةِ ٱلْماءِ ٱلواقِعِ بَيْنَ ٱلجَزيرةِ ٱلبَعيدةِ وَٱلشّاطِئِ ، فَقَدْ كانَتِ ٱلمِياهُ ٱلسَّريعةُ ٱلصّاخِبةُ تَتَقاطَعُ في ٱتِّجاهاتٍ مُتَعَدِّدةٍ مَعَ ٱتِّجاهِ ٱلرِّيحِ وَضِدِّها .

قالَ ٱلرَّجُلُ ٱلعَجوزُ : « إِنَّ ٱلجَزيرةَ ٱلبَعيدةَ هِيَ جَزيرةُ فورْغ ، أَمّا هٰذِهِ ٱلقَريبةُ فَهِيَ جَزيرةُ موسْكو . هَلْ تَسْمَعُ شَيْئًا ؟ هَلْ تَرى أَيَّ تَغَيُّرٍ في ٱلماءِ ؟ »

لاحَظْتُ أَثْناءَ كَلامِ ٱلرَّجُلِ ٱلعَجوزِ صَوْتًا مُرْتَفِعًا يَزْدادُ ٱرْتِفاعُهُ تَدْريجيًّا وَكَأَنَّهُ صَوْتُ مِئةٍ مِنْ طَواحينِ ٱلهَواءِ ، وَفي نَفْسِ ٱلوَقْتِ رَأَيْتُ أَنَّ تَحَرُّكاتِ ٱلبَحْرِ تَحْتَنا قَدْ بَدَأَتْ تَتَغَيَّرُ لِتَتَّخِذَ شَكْلَ تَيّارٍ يَتَّجِهُ ناحيةَ ٱلشَّرْقِ . وَلاحَظْتُ وَأَنا أَنْظُرُ إِلى هٰذا ٱلتَّيّارِ أَنَّ سُرْعَتَهُ تَزْدادُ بِصورةٍ لا تُصَدَّقُ . وَفي مَدى خَمْسِ دَقائِقَ أَصْبَحَ ٱلبَحْرُ كُلُّهُ حَتّى جَزيرةِ فورْغ في حالةِ غَلَيانٍ صاخِبٍ عَنيفٍ ، وَلٰكِنَّ أَعْنَفَ جُزْءٍ في هٰذا ٱلصَّخَبِ كانَ في ٱلمِنْطَقةِ ٱلواقِعةِ بَيْنَ جَزيرةِ موسْكو وَٱلشّاطِئِ . فَفي هٰذِهِ ٱلمِنْطَقةِ كانَتِ ٱلأَمْواجُ ٱلثّائِرةُ تَرْتَفِعُ وَتَتَسابَقُ وَتَزْأَرُ وَتَدورُ في آلافٍ مِنَ ٱلدَّوائِرِ ، وَكانَتْ كُلُّ تِلْكَ ٱلدَّوائِرِ أَوِ ٱلدُّوّاماتِ تَنْدَفِعُ بِسُرْعةٍ مُخيفةٍ نَحْوَ ٱلشَّرْقِ .

لٰكِنَّ ٱلمَنْظَرَ تَغَيَّرَ مَرَّةً أُخْرى بَعْدَ بِضْعِ دَقائِقَ . فَقَدْ بَدَأَ سَطْحُ ٱلماءِ يَهْدَأُ ، وَٱنْدَمَجَتِ ٱلدُّوّاماتُ ٱلصَّغيرةُ ٱلَّتي كانَتْ مُنْتَشِرةً إِلى مَسافةٍ بَعيدةٍ ، وَنَتَجَ عَنِ ٱنْدِماجِها ظُهورُ دُوّامةٍ واحِدةٍ — وَفَجْأَةً رَأَيْتُ هٰذِهِ ٱلدُّوّامةَ ٱلضَّخْمةَ وَقَدْ

أَصْبَحَتْ دائِرةً كَبيرةً يَزيدُ قُطْرُها عَلى كيلو مِتْرٍ . وَكانَ يُمَثِّلُ حافةَ هٰذِهِ ٱلدُّوّامةِ إِطارٌ عَريضٌ مِنَ ٱلمياهِ ٱلبَيْضاءِ . أَمّا ٱلدُّوّامةُ نَفْسُها فَكانَتْ ، إِلى أَقْصى مَرْمى ٱلنَّظَرِ ، عِبارةً عَنْ حائِطٍ مِنَ ٱلماءِ ٱلأَمْلَسِ ٱللّامِعِ ، ٱلأَسْوَدِ كَٱلحِبْرِ ؛ وَكانَ ٱنْحِدارُ ذٰلِكَ ٱلحائِطِ ٱلمائيِّ بِزاويةٍ قَدْرُها خَمْسٌ وَأَرْبَعونَ دَرَجةً . وَكانَ يَدورُ وَيَدورُ مُرْسِلًا صَوْتًا مُخيفًا تَنْشُرُهُ ٱلرِّيحُ فَتَحْسَبُهُ بَيْنَ ٱلصِّياحِ وَٱلزَّئيرِ لا مَثيلَ لَهُ عَلى ظَهْرِ ٱلأَرْضِ .

زُلْزِلَتِ ٱلصَّخْرةُ ٱلَّتي كُنّا جالِسَيْنِ عَلَيْها زِلْزالًا عَنيفًا ، فَٱنْبَطَحْتُ عَلى ٱلأَرْضِ وَأَمْسَكْتُ ٱلصَّخْرةَ بِكُلِّ قُوايَ .

قُلْتُ لِلرَّجُلِ ٱلعَجوزِ : « هٰذِهِ لا يُمْكِنُ أَنْ تَكونَ إِلّا دُوّامةَ ٱلمايلْستروم ٱلهائِلةَ . »

قالَ : « هٰكَذا تُسَمّى في بَعْضِ ٱلأَوْقاتِ ، وَلٰكِنَّنا نُسَمّيها ٱلموسْكوسْتروم نِسْبةً إِلى جَزيرةِ موسْكو . »

إِنَّ ما قَرَأْتُهُ مِنْ وَصْفٍ عاديٍّ لِهٰذِهِ ٱلدُّوّامةِ لَمْ يُهَيِّئْني لِما رَأَيْتُ . ذٰلِكَ أَنَّ ٱلوَصْفَ ٱلَّذي قَدَّمَهُ جوناس راموس — وَقَدْ يَكونُ أَحْسَنَ وَصْفٍ ظَهَرَ لِهٰذِهِ ٱلظّاهِرةِ — هوَ في ٱلواقِعِ أَبْعَدُ ما يَكونُ عَنِ ٱلحَقيقةِ . رُبَّما يَرْجِعُ ذٰلِكَ إِلى أَنَّهُ لَمْ يُشاهِدْها مِنْ قِمَّةِ هِلْسِغن . وَمَعَ ذٰلِكَ فَإِنَّ بَعْضَ ٱلتَّفْصيلاتِ ٱلَّتي قَدَّمَها راموس لَها أَهَمِّيَّتُها ، إِلّا أَنَّها لا تُعْطي فِكْرةً حَقيقيّةً عَنْ هٰذِهِ ٱلأُعْجوبةِ .

قالَ في وَصْفِهِ : « عِنْدَما يَأْتي ٱلمَدُّ يُسْرِعُ ٱلتَّيّارُ عَلى طولِ ٱلشّاطِئِ مِنْ جُزُرِ

لُوفوتِن إلى جَزيرةِ موسْكو . وَعِنْدَما يَنْحَسِرُ يُحْدِثُ زَئيرًا لا يُدانيهِ ٱلضَّجيجُ ٱلَّذي يُحْدِثُهُ أَعْنَفُ شَلّالٍ هادِرٍ ، إذْ يُسْمَعُ هٰذا ٱلصَّوْتُ على بُعْدِ عِدَّةِ كيلو مِتْراتٍ . وَتَحْدُثُ دُوّامةٌ ذاتُ اتِّساعٍ وَعُمْقٍ كَبيرَيْنِ ، حَتّى إنَّهُ إذا اقْتَرَبَتْ مِنْها سَفينةٌ كَبيرةٌ فَإِنَّها تَجْذِبُها إلى مُحيطِها ٱلدَّوّارِ ثُمَّ تُنْزِلُها إلى قاعِ ٱلبَحْرِ ، وَهُناكَ تَرْتَطِمُ بِٱلصُّخورِ فَتَتَحَطَّمُ . وَعِنْدَما يَعودُ ٱلمَدُّ يَطْفو حُطامُ ٱلسَّفينةِ عَلى سَطْحِ ٱلماءِ . وَٱلفَتْرةُ ٱلَّتي يُصْبِحُ فيها ٱلبَحْرُ هادِئًا بَيْنَ ٱلمَدِّ وَٱلجَزْرِ لا تَزيدُ عَنْ رُبْعِ ساعةٍ يَبْدَأُ بَعْدَها ٱلهَيَجانُ مِنْ جَديدٍ بِٱلتَّدْريجِ . »

إنَّ هٰذهِ ٱلمُحاوَلةَ ٱلَّتي قامَ بها جوناس رامُوس لِوَصْفِ ٱلدُّوّامةِ على أنَّها نَتيجةٌ لِلْمَدِّ وَٱلجَزْرِ مُحاوَلةٌ كانَتْ تَبْدو مَعْقولةً لي عِنْدَما قَرَأْتُها مُنْذُ عِدَّةِ سِنينَ . وَلٰكِنَّها تَبْدو لِيَ ٱلآنَ – وَزَئيرُ ٱلدُّوّامةِ يُصِمُّ أُذُنَيَّ – مُحاوَلةً غَيْرَ مُقْنِعةٍ عَلى ٱلإِطْلاقِ . وَعِنْدَما نَظَرْتُ إلى ٱلبَحْرِ بَدَأَ ذِهْني يَتَقَبَّلُ ذٰلِكَ ٱلتَّفْسيرَ ٱلَّذي قالَ بِهِ كيرْتْشَر وَآخَرونَ وَٱلَّذي يَدَّعونَ فيهِ بِوُجودِ ثَقْبٍ أَوْ شَرْخٍ في قاعِ ٱلبَحْرِ ، وَأَنَّ هٰذا ٱلثَّقْبَ أَوِ ٱلشَّرْخَ يَمْتَدُّ داخِلَ ٱلكُرَةِ ٱلأَرْضيَّةِ كُلِّها لِيَخْرُجَ مِنَ ٱلطَّرَفِ ٱلآخَرِ في أَحَدِ ٱلمُحيطاتِ ٱلبَعيدةِ . لَقَدْ ذَكَرْتُ هٰذهِ ٱلفِكْرَةَ لِدَليلي ٱلعَجوزِ وَٱعْتَبَرْتُها نَوْعًا مِنَ ٱلمُزاحِ ، وَلٰكِنَّني دَهِشْتُ عِنْدَما سَمِعْتُهُ يَقولُ إنَّ مُعْظَمَ ٱلنّاسِ يُؤْمِنونَ بِهٰذا ٱلرَّأْيِ عَلى ٱلرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لا يوافِقُ عَلَيْهِ .

قالَ لي : « لَقَدْ رَأَيْتَ ٱلدُّوّامةَ ٱلآنَ وَأَخَذْتَ فِكْرةً جَيِّدةً عَنْها . وَإِذا زَحَفْتَ حَوْلَ هٰذهِ ٱلصَّخْرةِ وَٱبْتَعَدْتَ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ عَنِ ٱلصَّوْتِ فَسَوْفَ أَقُصُّ

عَلَيْكَ قِصَّةً تُريكَ أَنّي أَعْرِفُ شَيْئًا عَنِ ٱلموسْكوسْتروم . »

فانْتَقَلْنا إلى ٱلجُزْءِ ٱلخَلْفيِّ مِنَ ٱلصَّخْرةِ ، وَواصَلَ حَديثَهُ قائِلًا : « كُنّا نَحْنُ ٱلثَّلاثةَ – أَخَوايَ الاثْنانِ وَأَنا – نَمْتَلِكُ مَرْكَبًا شِراعيًّا حُمولَتُهُ حَوالَى سَبْعينَ طُنًّا ، وَقَدِ ٱعْتَدْنا أَنْ نُزاوِلَ ٱلصَّيْدَ في ٱلمِنْطَقةِ ٱلواقِعةِ وَراءَ جَزيرةِ موسْكو وَنَصِلَ في عَمَلِنا إلى ما يَقْرُبُ مِنْ جَزيرةِ فورْغ .

« كانَ في تِلْكَ ٱلمِنْطَقةِ سَمَكٌ وَفيرٌ لِأَنَّ ٱلمَناطِقَ ٱلَّتي يَزْدادُ فيها عُنْفُ ٱلتَّيّاراتِ ٱلبَحْريَّةِ تَكونُ زاخِرةً بِٱلسَّمَكِ وَلا تَحْتاجُ إلا إلى شَيْءٍ مِنَ ٱلشَّجاعةِ . وَكُنّا نَحْنُ ٱلثَّلاثةَ ٱلوَحيدينَ مِنْ بَيْنِ كُلِّ صَيّادي لوفوتِن ٱلَّذينَ ٱعْتَدْنا أَنْ نَذْهَبَ بِانْتِظامٍ إلى تِلْكَ ٱلمِنْطَقةِ كَما قُلْتُ لَكَ . أَمّا ٱلباقونَ فَكانوا يَذْهَبونَ إلى مَناطِقِ ٱلصَّيْدِ ٱلمُعْتادةِ ٱلَّتي تَقَعُ بَعيدًا إلى ٱلجَنوبِ . وَكُنّا نُخاطِرُ بِٱلذَّهابِ إلى مِنْطَقةِ ٱلدُّوّامةِ لِأَنَّ ٱلسَّمَكَ ٱلمُمْتازَ ٱلَّذي كُنّا نَصْطادُهُ كانَ مَوْجودًا بِكَمِّيّاتٍ وَفيرةٍ حَوْلَ صُخورِ جَزيرةِ موسْكو .

« كانَ مِنْ عادَتِنا أَنْ نُبْحِرَ إلى ٱلجَزيرةِ في رُبْعِ ٱلسّاعةِ ٱلَّذي يَقَعُ بَيْنَ حَرَكَتَي ٱلمَدِّ وَٱلجَزْرِ ، ثُمَّ نَقومُ بِٱلصَّيْدِ هُناكَ حَتّى تَأْتيَ فَتْرةُ ٱلهُدوءِ ٱلتّاليةُ بَعْدَ حَوالَى سِتِّ ساعاتٍ ، وَعِنْدَئِذٍ نَقومُ بِرِحْلةِ ٱلعَوْدةِ . وَلَمْ نَكُنْ نَبْدَأُ ٱلإِبْحارَ إلّا في ريحٍ طَيِّبةٍ أَثْناءَ رِحْلَتَي ٱلذَّهابِ وَٱلعَوْدةِ . وَلَمْ يَحْدُثْ أَنْ أَخْفَقْنا في حِسابِ ٱلزَّمَنِ حِسابًا دَقيقًا إلّا في مَرَّتَيْنِ ، وَفي ٱلمَرَّتَيْنِ حَظينا بِٱلسَّلامةِ وَٱلأَمانِ وَنَحْنُ عَلى مَقْرُبةٍ مِنَ ٱلجُزُرِ .

« كُنّا نَعْبُرُ ٱلموسْكوسْترومَ نَفْسَها دونَ أَنْ يُصيبَنا مَكْروهٌ ، عَلى ٱلرَّغْمِ

مِنْ أَنَّ قَلْبِي كانَ يَخْفِقُ بِعُنْفٍ في بَعْضِ ٱلْأَحْيانِ عِنْدَما كُنَّا نَقومُ بِٱلعُبورِ مُتَأَخِّرِينَ أَوْ مُتَقَدِّمينَ بِدَقيقَةٍ أَوْ ما يُقارِبُها عَنِ ٱلمَوْعِدِ ٱلمُحَدَّدِ لِفَتْرَةِ ٱلهُدوءِ . وَكانَ لِأَخي ٱلْأَكْبَرِ ٱبْنٌ يَبْلُغُ مِنَ ٱلعُمْرِ ثَمانِيَةَ عَشَرَ عامًا ، كَما كانَ لي ثَلاثَةُ أَبْناءٍ . وَكانَ مِنَ ٱلمُمْكِنِ أَنْ يُساعِدونا باسْتِخْدامِ ٱلمَجاذيفِ في فَتَراتِ ٱلهُدوءِ . وَلٰكِنَّنا لَمْ نُفَكِّرْ قَطُّ في تَعْريضِهِمْ لِلْخَطَرِ ٱلَّذي كُنَّا نُقْدِمُ نَحْنُ عَلَيْهِ . ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْأَمْرَ كانَ جِدَّ خَطيرٍ وَهٰذِهِ هِيَ ٱلحَقيقَةُ .

« كانَ ذٰلِكَ مُنْذُ حَوالَى ثَلاثِ سَنَواتٍ ، وَبِٱلتَّحْديدِ في ٱليَوْمِ ٱلعاشِرِ مِنْ يُولْيو سنة – ١٨ عِنْدَما صادَفْنا عِنْدَ هٰذا ٱلسّاحِلِ أَعْنَفَ عاصِفَةٍ هَبَّتْ عَلَيْنا في حَياتِنا ، عَلى ٱلرَّغْمِ مِنْ أَنَّ ٱلرِّيحَ كانَتْ تَهُبُّ رُخاءً مِنَ ٱلجَنوبِ ٱلشَّرْقِيِّ مُنْذُ ٱلصَّباحِ ٱلباكِرِ حَتَّى ساعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ بَعْدَ ٱلظُّهْرِ ، وَلَمْ تَكُنْ في ٱلسَّماءِ سَحابَةٌ واحِدَةٌ . وَكُنَّا نَحْنُ ٱلثَّلاثَةَ – أَخَوايَ وَأَنا – قَدْ عَبَرْنا إلى ٱلجُزُرِ في حَوالَى ٱلسّاعَةِ ٱلثّانِيَةِ بَعْدَ ٱلظُّهْرِ . وَبَعْدَ فَتْرَةٍ وَجيزَةٍ كُنَّا قَدْ مَلَأْنا ٱلقارِبَ بِٱلسَّمَكِ ٱلمُمْتازِ ، وَأَجْمَعْنا أَنَّ ٱلسَّمَكَ في ذٰلِكَ ٱليَوْمِ كانَ أَوْفَرَ مِنْهُ في أَيِّ وَقْتٍ مَضَى . وَبَدَأْنا رِحْلَةَ ٱلعَوْدَةِ عِنْدَما كانَتْ ساعَتي تُشيرُ إلى ٱلسّابِعَةِ حَتَّى نَصِلَ إلى مَكانِ ٱلموسْكوسْتْروم وَقْتَ هُدوءِ ٱلماءِ ، فَقَدْ كُنَّا نَعْرِفُ أَنَّ ٱلهُدوءَ سَوْفَ يَحينُ في ٱلسّاعَةِ ٱلثّامِنَةِ مَساءً .

« واصَلْنا إبْحارَنا بِسُرْعَةٍ عالِيَةٍ لِفَتْرَةٍ مِنَ ٱلزَّمَنِ دونَ أَنْ يَكونَ لَدَيْنا أَيُّ احْتِمالٍ بِأَنَّ شَيْئًا خَطيرًا سَوْفَ يَحْدُثُ . وَفَجْأَةً وَبِدونِ أَيِّ إنْذارٍ تَوَقَّفَتِ ٱلرِّيحُ وَلَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نُحْرِزَ أَيَّ تَقَدُّمٍ . وَفي نَفْسِ ٱلوَقْتِ جاءَتْ وَراءَنا سَحابَةٌ

غَريبَةٌ نُحاسِيَّةُ ٱللَّوْنِ تَتَحَرَّكُ بِسُرْعَةٍ فائِقَةٍ . وَلَمْ تَدَعْ لَنا ٱلعاصِفَةُ وَقْتًا نُفَكِّرُ فيهِ ؛ فَفي أَقَلَّ مِنْ ثَلاثِ دَقائِقَ كانَتْ قَدْ أَحاطَتْ بِنا وَأَظْلَمَ ٱلجَوُّ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدُنا أَنْ يَرى ٱلآخَرَ في ٱلمَرْكَبِ .

« مِنَ ٱلعَبَثِ أَنْ أُحاوِلَ وَصْفَ تِلْكَ ٱلعاصِفَةِ ، ذٰلِكَ أَنَّ أَكْبَرَ ٱلبَحّارَةِ ٱلنَّرْويجِيِّينَ سِنًّا لَمْ يَشْهَدْ مَثيلًا لَها في حَياتِهِ . فَبِمُجَرَّدِ هُبوبِها قَذَفَتْ بِأَخي ٱلْأَصْغَرِ إلى ٱلبَحْرِ حَيْثُ لَقِيَ حَتْفَهُ . وَكانَ مِنَ ٱلمُمْكِنِ أَنْ أَلْقى مَصيرَهُ لَوْ لَمْ أَنْبَطِحْ وَأُمْسِكْ بِحَلْقَةٍ حَديدِيَّةٍ كانَتْ في وَسَطِ ٱلمَرْكَبِ .

« غَمَرَنا ماءُ ٱلبَحْرِ عِدَّةَ دَقائِقَ كُنْتُ خِلالَها أُمْسِكُ بِأَنْفاسي ، وَعِنْدَما أَصْبَحَ مِنَ ٱلمُسْتَحيلِ أَنْ أَتَوَقَّفَ عَنِ ٱلتَّنَفُّسِ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ جَلَسْتُ عَلى رُكْبَتَيَّ مَعَ تَشَبُّثي بِٱلحَلْقَةِ ٱلحَديدِيَّةِ ، وَبِذٰلِكَ رَفَعْتُ رَأْسي فَوْقَ ٱلماءِ لِأَتَنَفَّسَ . ثُمَّ اهْتَزَّ مَرْكَبُنا ٱلصَّغيرُ كَما يَهْتَزُّ ٱلكَلْبُ عِنْدَ خُروجِهِ مِنَ ٱلماءِ ، وَطَفا عَلى ٱلمَوْجِ بِصورَةٍ جُزْئِيَّةٍ . وَفي ٱللَّحْظَةِ ٱلتّالِيَةِ شَعَرْتُ بِيَدٍ تُمْسِكُ ذِراعي ، وَكانَ ذٰلِكَ أَخي ٱلْأَكْبَرُ وَدَقَّ قَلْبي فَرَحًا بِهِ إذْ إنَّني كُنْتُ حَسِبْتُهُ قَدْ غَرِقَ لا مَحالَةَ . وَلٰكِنْ سَرْعانَ ما تَحَوَّلَ فَرَحي إلى خَوْفٍ عِنْدَما وَضَعَ فَمَهُ عَلى مَقْرُبَةٍ مِنْ أُذُني وَصاحَ بِكَلِمَةِ « موسْكوسْتْروم » .

« لَيْسَ في وُسْعِ أَحَدٍ أَنْ يُدْرِكَ كَيْفَ كانَتْ مَشاعِري في تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ : لَقَدِ ارْتَعَدْتُ مِنْ قِمَّةِ رَأْسي إلى أَخْمَصِ قَدَمي ، وَكَأَنَّما قَدْ أَصابَتْني أَشَدُّ حُمَّى يُمْكِنُ تَخَيُّلُها . لَقَدْ عَرَفْتُ ما كانَتْ تَعْنيهِ تِلْكَ ٱلكَلِمَةُ ٱلواحِدَةُ ، وَعَرَفْتُ ما يُريدُني أَنْ أُدْرِكَهُ . لَقَدْ كانَتِ ٱلرِّياحُ تَدْفَعُنا رَأْسًا ٱلآنَ نَحْوَ دُوّامَةٍ

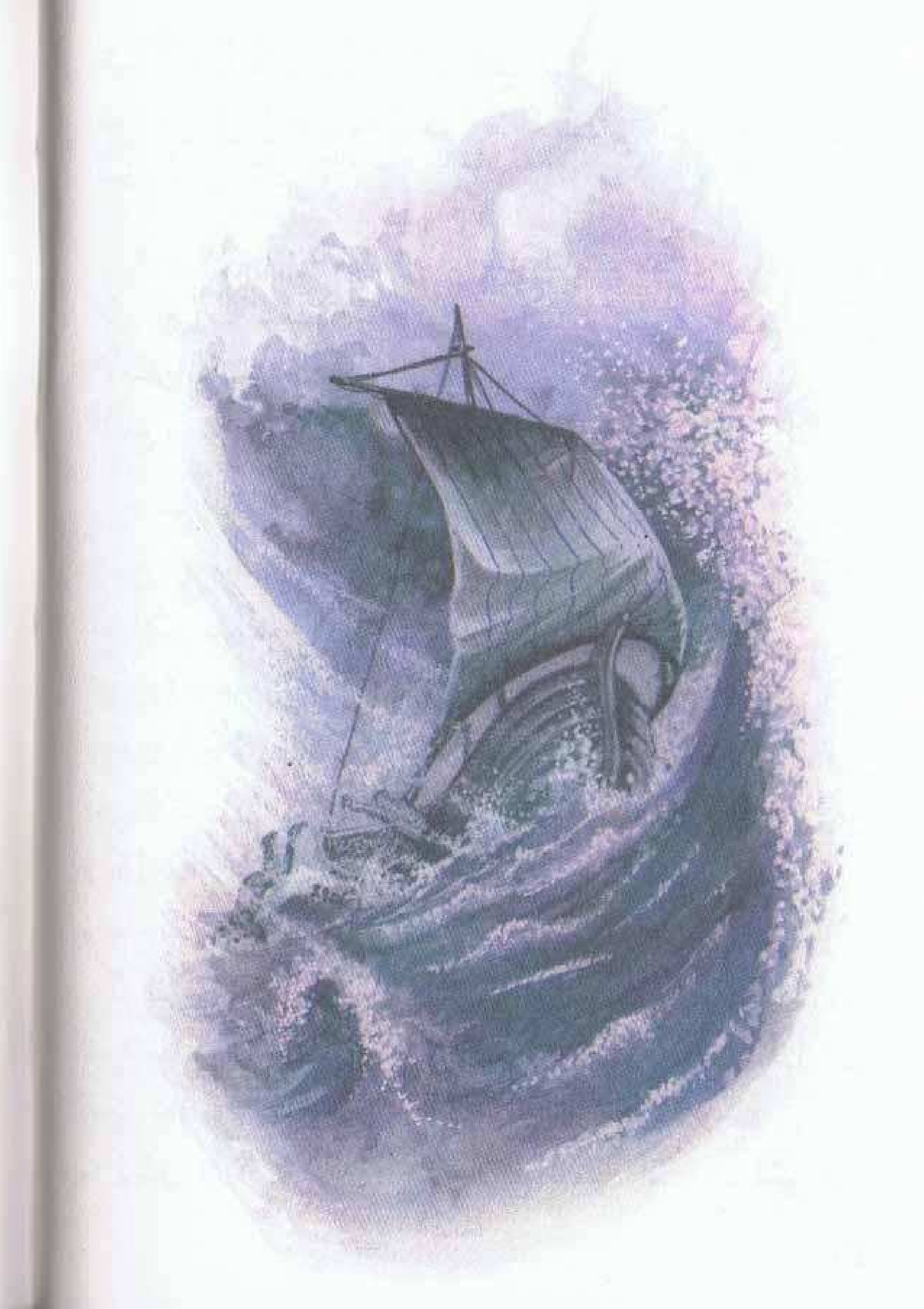
اَلْمُوسْكُوسْتروم . وَلَيْسَ أَمامَنا ما يُمْكِنُ أَنْ يُنْقِذَنا اَللَّهُمَّ إِلَّا إذا وَصَلْنا إِلَيْها في فَتْرَةِ اَلْهُدوءِ .

« كُنَّا قَدْ فَقَدْنا أَشْرِعَتَنا وَلَمْ تَعُدْ لَنا قُدْرَةٌ عَلى اَلسَّيْطَرَةِ عَلى اَلْمَرْكَبِ وَنَحْنُ نَنْدَفِعُ بِسُرْعَةٍ وَسْطَ أَمْواجٍ كَالْجِبالِ لَمْ أَرَ مَثيلًا لَها طَوالَ حَياتي . وَحَدَثَ شَيْءٌ مِنَ اَلتَّغَيُّرِ في اَلسَّماءِ عَلى اَلرَّغْمِ مِنْ أَنَّ اَلظَّلامَ كانَ مُطْبِقًا عَلَيْنا مِنْ كُلِّ جانِبٍ . اِنْتابَتْني اَلْحَيْرَةُ لِفَتْرَةٍ قَصيرَةٍ ، ثُمَّ ظَهَرَتْ فَوْقَنا مُباشَرَةً دائِرَةٌ وَسْطَ اَلسُّحُبِ أَظْهَرَتْ لي اَلسَّماءَ اَلزَّرْقاءَ اَلصَّافِيَةَ ، وَظَهَرَ اَلْبَدْرُ بِنورِهِ مُنيرًا كُلَّ ما حَوْلَنا . وَلٰكِنْ بالَهُ مِنْ مَنْظَرٍ ذٰلِكَ اَلَّذي أَظْهَرَهُ لي ضَوْءُ اَلْقَمَرِ .

« حاوَلْتُ آنَذاكَ أَنْ أَتَحَدَّثَ مَعَ أَخي ، وَلٰكِنْ لَمْ يَكُنْ في اسْتِطاعَتِهِ أَنْ يَسْمَعَ كَلِمَةً واحِدَةً مِمَّا قُلْتُهُ ، لِأَنَّ اَلصَّوْتَ حَوْلَنا كانَ قَدْ عَلا عُلُوًّا كَبيرًا لِسَبَبٍ لَمْ أَعْرِفْهُ . حَرَّكَ أَخي رَأْسَهُ وَرَفَعَ سَبَّابَتَهُ كَأَنَّما يَقولُ لي : ‹ اِسْتَمِعْ ! › وَلٰكِنَّني لَمْ أَفْهَمْ ما كانَ يَعْنيهِ .

« فَجْأَةً جاءَتْني فِكْرَةٌ مُفْزِعَةٌ ، فَأَخْرَجْتُ ساعَتي وَعَرَفْتُ أَنَّها قَدْ تَوَقَّفَتْ ، وَنَظَرْتُ إِلى عَقارِبِها في ضَوْءِ اَلْقَمَرِ وَأَدْرَكْتُ اَلسَّبَبَ في كُلِّ هٰذا اَلْهَوْلِ . لَقَدْ تَوَقَّفَتْ ساعَتي عِنْدَ اَلسَّاعَةِ اَلسَّابِعَةِ . صَدَمَتْني تِلْكَ اَلْحَقيقَةُ ، فَانْفَجَرْتُ باكِيًا وَأَنا أُلْقي بِالسَّاعَةِ إِلى عُرْضِ اَلْمُحيطِ . لَقَدْ كانَ ذٰلِكَ سَبَبَ تَأَخُّرِنا إِلى ما بَعْدَ فَتْرَةِ اَلْهُدوءِ ، وَصارَتِ اَلدُّوَّامَةُ آنَذاكَ في أَوْجِ عُنْفِها .

« بَعْدَ فَتْرَةٍ وَجيزَةٍ جاءَتْ مَوْجَةٌ عالِيَةٌ فَحَمَلَتْنا مَعَها عالِيًا كَأَنَّما تَذْهَبُ بِنا



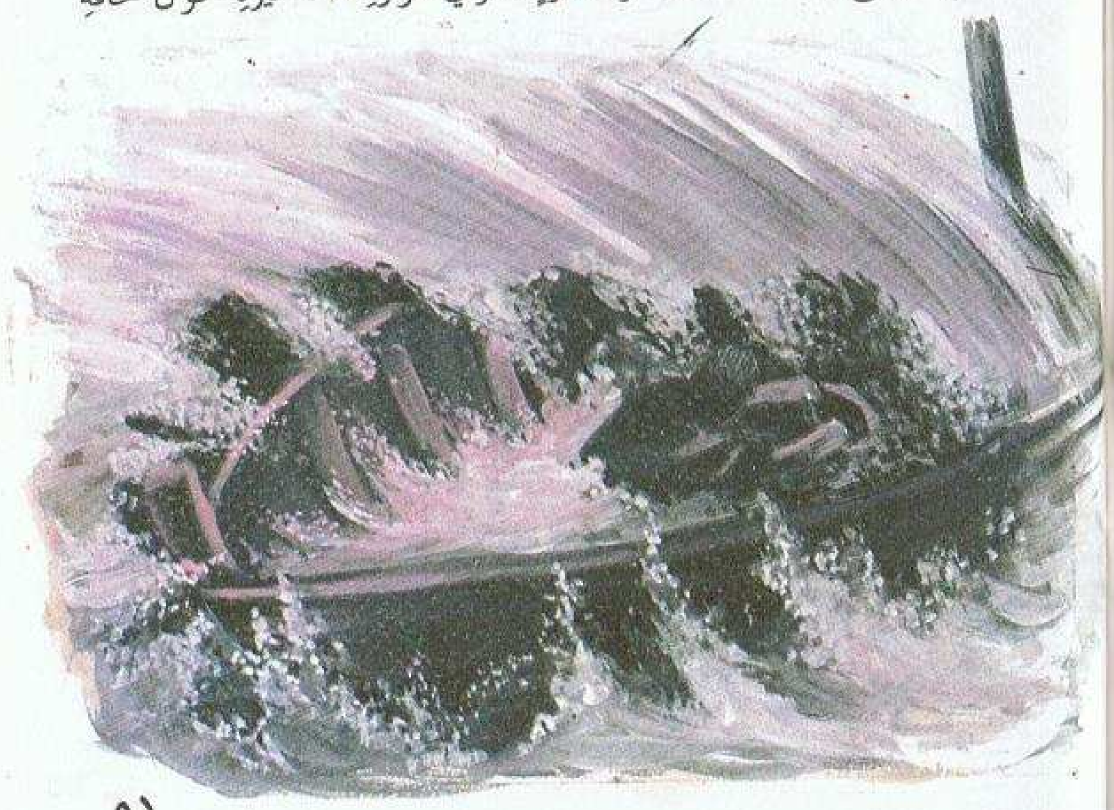
إلى عَنانِ السَّماءِ ، ثُمَّ اندفَعْنا بعْدَ ذلِكَ إلى أسْفلَ نَهوي بِسُرْعةٍ جعلَتْني أشْعُرُ بالغثَيانِ . وكُنْتُ عِنْدَما رفَعَتْنا المَوْجةُ قدْ نظَرْتُ مِنْ شاهِقٍ نظْرةً سريعةً على ما حوْلي ، وكانَتْ تِلْكَ النَّظْرةُ كافيةً ، فقَدْ أدْركْتُ حقيقةَ موْقِفِنا في لحْظةٍ واحِدةٍ . إنَّ دُوَّامةَ الموسكوستروم على بُعْدِ كِيلو مِتْرٍ مِنَّا ، وأغْمَضْتُ عَيْنَيَّ وقَدِ استَبَدَّ بي الخَوْفُ بِدَرَجةٍ لَمْ يَسْبِقْ أنْ شعَرْتُ بِها قطُّ .

« بَعْدَ ما لا يَزيدُ عَنْ دَقيقَتَيْنِ كُنَّا قدْ دَخَلْنا ذلِكَ الطَّوْقَ الأبْيَضَ العَريضَ الَّذي يُحيطُ بالدُّوَّامةِ ، ودارَ المَرْكَبُ حوْلَ نَفْسِهِ نِصْفَ دوْرةٍ نحْوَ الدَّاخِلِ . ثُمَّ انطَلَقَ في اتِّجاهِهِ الجَديدِ وكأنَّهُ سَهْمٌ يَنطَلِقُ مِنْ قَوْسِهِ . وخَفَتَتِ الرِّيحُ والأمْواجُ ، وتَغيَّرَ زَئيرُ الماءِ لِيُصبِحَ صَفيرًا عالِيًا ، وكأنَّهُ صَفيرُ ألْفِ سَفينةٍ بُخاريَّةٍ أرْسلَتْ صَفيرَها دُفْعةً واحِدةً . توَقَّعْتُ بِطَبيعةِ الحالِ أنَّنا سوْفَ نَغوصُ في قاعِ الدُّوَّامةِ بعْدَ دَقيقةٍ أُخْرى . ولَمْ يَكُنْ في وُسْعِنا أنْ نَنظُرَ إلى مَرْكَزِ الدُّوَّامةِ بِسَبَبِ السُّرْعةِ الهائِلةِ الَّتي كُنَّا نَنطَلِقُ بِها . وكانَ المُحيطُ الَّذي خلَّفْناهُ وراءَنا يَقِفُ الآنَ إلى جانِبِنا وكأنَّهُ حائِطٌ هائِلٌ يَحولُ بَيْنَنا وبَيْنَ النَّظَرِ إلى الأُفُقِ .

« قَرَّرْتُ بَيْني وبَيْنَ نَفْسي – بَعْدَ أنْ أصْبَحْنا الآنَ فَريسةً في فَمِ المَوْتِ – ألَّا أتَعلَّقَ بِأيِّ أمَلٍ . وعِنْدَما وَصَلْتُ إلى هٰذا القَرارِ بَدَأْتُ أُفكِّرُ في رَوْعةِ المَوْتِ بِهٰذِهِ الطَّريقةِ وقَدْ أحاطَتْ بِنا مِنْ كُلِّ جانِبٍ دَلائِلُ قُدْرةِ اللهِ . رُبَّما اعْتَقَدْتُ أنَّهُ شَيْءٌ أشْبَهُ بِالجُنونِ – أوْ أنَّهُ جُنونُ اليَأْسِ – ولٰكِنَّ الرَّغْبةَ الَّتي راوَدَتْني في تِلْكَ اللَّحْظةِ هِيَ اكْتِشافُ ما في أعْماقِ هٰذِهِ الدُّوَّامةِ. وكانَ

ما أحْزَنَني كثيرًا هُوَ أنَّني لَنْ أعيشَ بعْدَ ذلِكَ لِأرْوِيَ لِأصْحابي على الشّاطِئِ تِلْكَ الأسْرارَ الغامِضةَ الَّتي يَكْتُمُها البَحْرُ في أحْشائِهِ والَّتي سوْفَ أطَّلِعُ علَيْها .

« مِنَ المُسْتَحيلِ أنْ نَقولَ كَمْ مِنَ المَرَّاتِ دُرْنا حوْلَ حافةِ الدُّوَّامةِ . لَقَدْ مَكَثْنا حَوالَى السَّاعةِ نَدورُ ونَدورُ ، وكُنَّا نَقْتَرِبُ بِالتَّدْريجِ مِنَ الطَّرَفِ الدَّاخِليِّ المُفْزِعِ لِذلِكَ الطَّوْقِ الأبْيَضِ . وكانَ الماءُ تَحْتَنا يَنْحَدِرُ بِزاويةٍ حادَّةٍ ، وكُنْتُ طَوالَ هٰذا الوَقْتِ مُتَشَبِّثًا بِقُوَّةٍ بِالحَلْقةِ الحَديديَّةِ . أمَّا أخي فَقَدْ كانَ في ذلِكَ الوَقْتِ في مُؤَخِّرةِ المَرْكَبِ مُمْسِكًا بِبَرْميلٍ فارِغٍ صَغيرٍ كانَ مَرْبوطًا بِالمَرْكَبِ رَبْطًا مُحْكَمًا . وكانَ ذلِكَ البَرْميلُ الشَّيْءَ الوَحيدَ الَّذي لَمْ تَعْصِفْ بِهِ الرِّياحُ عِنْدَما داهَمَتْنا أوَّلَ مَرَّةٍ . وفي دوْرَتِنا الأخيرةِ حوْلَ حافةِ



الدُّوَّامةِ ، قَبْلَ أَنْ يَهْبِطَ مَرْكَبُنا إلى وَسَطِها ، انْدَفَعَ أخي نَحْوي وَالْخَوْفُ يَعْصِرُهُ — خَوْفُ مَنْ أُصيبَ بِالْجُنونِ — وَفَكَّ يَدَيَّ مِنَ الْحَلْقَةِ لِيُمْسِكَ هُوَ بِها . وَلَمْ أَشْعُرْ بِحُزْنٍ كَذٰلِكَ الْحُزْنِ الَّذي شَعَرْتُ بِهِ عِنْدَما حَدَثَ هٰذا مِنْ أخي ، رَغْمَ أَنّي كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ عَمَلَهُ هٰذا لَنْ يُقَدِّمَ أَوْ يُؤَخِّرَ ؛ فَتَرَكْتُ لَهُ الْحَلْقَةَ لِيُمْسِكَ بِها وَذَهَبْتُ أنا إلى الْبِرْميلِ . وَما إِنْ أَمْسَكْتُ بِالْبِرْميلِ حَتّى دارَ الْمَرْكَبُ دَوْرَةً عَنيفَةً نَحْوَ الدّاخِلِ ، وَانْدَفَعَ مَعَ الْمِياهِ الدَّوّارَةِ فِي الْجُزْءِ الْأَسْفَلِ مِنَ الدُّوَّامةِ . وَعِنْدَئِذٍ دَعَوْتُ اللّهَ بِدُعاءٍ قَصيرٍ وَقُلْتُ في نَفْسي لَقَدِ انْتَهى كُلُّ شَيْءٍ .

« عِنْدَما شَعَرْتُ بِالنُّزولِ الْفُجائيِّ الْمُرْعِبِ ازْدَدْتُ تَشَبُّثًا بِالْبِرْميلِ ، وَأَغْمَضْتُ عَيْنَيَّ وَلَمْ أَجْسُرْ عَلى فَتْحِهِما لِبِضْعِ ثَوانٍ ، فَقَدْ كُنْتُ أَتَوَقَّعُ النِّهايَةَ عَلى الْفَوْرِ ، وَتَعَجَّبْتُ لِماذا لَمْ أَكُنْ حَتّى الْآنَ في صِراعِ الْمَوْتِ مَعَ الْماءِ . وَمَرَّتْ دَقيقَةٌ وَأَنا ما زِلْتُ حَيًّا . وَعِنْدَما زالَ عَنّي الشُّعورُ بِالسُّقوطِ إلى الْهاوِيَةِ تَجاسَرْتُ وَفَتَحْتُ عَيْنَيَّ .

« لَنْ أَنْسى طَوالَ حَياتي ذٰلِكَ الْمَنْظَرَ الَّذي رَأَيْتُهُ . لَقَدْ بَدا لي أَنَّ الْمَرْكَبَ مُعَلَّقٌ فِي النِّصْفِ الدّاخِليِّ لِحُفْرَةٍ دائِرِيَّةٍ عَلى شَكْلِ قِمْعٍ قُطْرُهُ أَقَلُّ مِنْ كيلو مِتْرٍ وَعُمْقُهُ ساحِقٌ . وَكانَتْ جُدْرانُ تِلْكَ الْحُفْرَةِ مِنَ الْماءِ الْأَسْوَدِ الْأَمْلَسِ كَالْأَبْنوسِ اللّامِعِ ، وَكانَتْ تَدورُ وَتَدورُ بِسُرْعَةٍ مُفْزِعَةٍ . وَكانَ ضَوْءُ الْقَمَرِ يَنْسابُ في رَوْعَتِهِ عَلى تِلْكَ الْجُدْرانِ وَإِلى الْجُزْءِ السُّفْلِيِّ مِنْها حَتّى قاعِ الْمُحيطِ .

كُنْتُ في أَوَّلِ الْأَمْرِ مِنَ الِارْتِباكِ بِحَيْثُ لَمْ أُلاحِظْ إِلّا الْمَنْظَرَ الْعامَّ لِما حَوْلي — وَلٰكِنْ بَعْدَ مُرورِ دَقيقَةٍ أَوِ اثْنَتَيْنِ لاحَظْتُ أَنَّ زاوِيَةَ انْحِدارِ الْماءِ كانَتْ حَوالَى خَمْسينَ دَرَجَةً وَأَنَّ الْمَرْكَبَ كانَ مُسْتَوِيًا عَلى الْماءِ في وَضْعِهِ الْعادِيِّ وَلَمْ أَجِدْ صُعوبَةً في أَنْ أُحافِظَ عَلى مَوْضِعِ قَدَمَيَّ ، إِذْ إِنَّ سُرْعَةَ الدَّوَرانِ كانَتْ هائِلَةً .

« كانَ انْزِلاقُنا أَوَّلَ مَرَّةٍ نَحْوَ الدُّوَّامةِ قَدْ دَفَعَنا — كَما سَبَقَ أَنْ ذَكَرْتُ — إِلى حَوالَى مُنْتَصَفِ الطَّريقِ نَحْوَ الْهاوِيَةِ . وَلٰكِنَّ نُزولَنا إِلَيْها بَعْدَ ذٰلِكَ أَصْبَحَ أَكْثَرَ بُطْئًا إِذْ أَخَذْنا نَدورُ وَنَدورُ وَفي كُلِّ دَوْرَةٍ كُنّا نَنْزِلُ مِتْرًا أَوْ ما يُقارِبُهُ .

« لَقَدْ أَتاحَ لي ذٰلِكَ فُرْصَةً لِأَنْ أَنْظُرَ حَوْلي فَأَدْهَشَني أَنْ أَرى أَنَّ مَرْكَبَنا لَمْ يَكُنِ الشَّيْءَ الْوَحيدَ الَّذي يَتَحَرَّكُ عَلى صَفْحَةِ الدُّوَّامةِ . فَقَدْ كانَ في وُسْعي أَنْ أَرى فَوْقَنا وَتَحْتَنا بَعْضَ حُطامِ السُّفُنِ وَجُذوعِ الْأَشْجارِ وَأَشْياءَ صَغيرَةً مِثْلَ الصَّناديقِ وَالْبَراميلِ وَالْعِصِيِّ . لا بُدَّ أَنّي لَمْ أَكُنْ في وَعْيِي الْكامِلِ في ذٰلِكَ الْوَقْتِ ، إِذْ إِنَّني كُنْتُ أَتَسَلّى وَأَنا أَنْتَظِرُ الْمَوْتَ — بِمُحاوَلَةِ تَخْمينِ أَيِّ الْأَشْياءِ هِيَ تِلْكَ الَّتي جاءَ عَلَيْها الدَّوْرُ لِأَنْ تَذْهَبَ إِلى الْقاعِ .

« وَقُلْتُ في نَفْسي ذاتَ مَرَّةٍ : (لا بُدَّ أَنَّ كُتْلَةَ الْخَشَبِ تِلْكَ هِيَ الَّتي جاءَ دَوْرُها لِكَيْ تَخْتَفِيَ .) وَلٰكِنْ خابَ ظَنّي عِنْدَما رَأَيْتُ حُطامَ إِحْدى السُّفُنِ التِّجارِيَّةِ يَسْبِقُها إِلى قاعِ الْبَحْرِ . وَقَدْ وَقَعْتُ في عِدَّةِ أَخْطاءٍ مِنْ هٰذا النَّوْعِ قَبْلَ أَنْ تَهْبِطَ عَلَيَّ فِكْرَةٌ ... فِكْرَةٌ جَعَلَتْ أَطْرافي تَرْتَعِدُ ثانِيَةً ، وَقَلْبي يَدُقُّ بِعُنْفٍ مَرَّةً أُخْرى .

« لَمْ يَكُنْ ما أَلْهَبَ مَشاعِري خَوْفًا مِنْ نَوْعٍ جَديدٍ ، بَلْ كانَ مِيلادَ أَمَلٍ مُثيرٍ . كانَ لِأَخْطائي في التَّخْمينِ مَعْنًى واحِدٌ : إِنَّ الشَّيْءَ الكَبيرَ كانَ يَقومُ بِرِحْلَةِ الهاوِيَةِ بِسُرْعَةٍ أَكْبَرَ مِنَ الشَّيْءِ الصَّغيرِ . وَبَدا لي وَأَنا أَنْظُرُ إِلى الأَشْياءِ الطَّافِيَةِ أَنَّ عَدَدًا كَبيرًا مِنَ الأَجْسامِ الصَّغيرَةِ الحَجْمِ لَنْ تَصِلَ إِلى مَرْكَزِ الدُّوَّامَةِ أَبَدًا ، وَأَنَّ حَرَكَةَ المَدِّ سَتَتَغَيَّرُ وَتَهْدَأُ الدُّوَّامَةُ قَبْلَ أَنْ تَغوصَ تِلْكَ الأَجْسامُ إِلى القاعِ . وَعِنْدَئِذٍ سَوْفَ تَظَلُّ طافِيَةً عَلى السَّطْحِ وَيَحْمِلُها التَّيَّارُ إِلى حَيْثُ يَشاءُ .

« وَأَثْناءَ تَفْكيري في هٰذِهِ الظَّاهِرَةِ لاحَظْتُ أَنَّ جِذْعَ شَجَرَةٍ قَصيرًا وَسَميكًا كانَ في مُحاذاتِنا مِنْ قَبْلُ ، وَلٰكِنَّهُ الآنَ أَعْلى مِنَّا بِكَثيرٍ وَأَنَّنا كُلَّما مَرَرْنا بِهِ ازْدادَتِ المَسافَةُ بَيْنَنا اتِّساعًا . لَمْ أَتَرَدَّدْ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ بَلْ قَرَّرْتُ أَنْ أَرْبُطَ نَفْسي إِلى البَرْميلِ الَّذي كُنْتُ مُمْسِكًا بِهِ ثُمَّ أَفُكَّ وِثاقَهُ مِنَ المَرْكَبِ ، وَأُلْقِيَ بِنَفْسي مَعَهُ إِلى الماءِ .

« وَحاوَلْتُ قَدْرَ إِمْكاني أَنْ أَشْرَحَ هٰذِهِ الخُطَّةَ لِأَخي مُسْتَعْمِلًا الإِشاراتِ وَكُنْتُ أَثْناءَ شَرْحي لَهُ أُشيرُ إِلى كُتَلِ الخَشَبِ الَّتي اقْتَرَبَتْ مِنَّا . وَأَعْتَقِدُ أَنَّهُ فَهِمَ ما أُريدُ قَوْلَهُ وَلٰكِنْ سَواءٌ أَكانَ قَدْ فَهِمَ حَقيقَةً أَمْ لا ، فَإِنَّهُ حَرَّكَ رَأْسَهُ رافِضًا في يَأْسٍ وَأَبى أَنْ يُغادِرَ مَكانَهُ بِجِوارِ الحَلْقَةِ الحَديدِيَّةِ . لَقَدْ كانَ الأَمْرُ آنَذاكَ في حاجَةٍ إِلى تَصَرُّفٍ سَريعٍ ، وَلَمْ يَكُنْ في وُسْعي أَنْ أَتَأَخَّرَ فَتَرَكْتُ أَخي لِمَصيرِهِ عَلى الرَّغْمِ مِنّي ، ثُمَّ قُمْتُ بِرَبْطِ نَفْسي إِلى البَرْميلِ مُسْتَخْدِمًا الحَبْلَ الَّذي يَرْبُطُ البَرْميلَ بِالمَرْكَبِ ، وَتَدَحْرَجْتُ نَحْوَ البَحْرِ دونَ أَيِّ تَرَدُّدٍ .



« كانَتِ النَّتيجَةُ كَما تَوَقَّعْتُ تَمامًا . وَبِما أَنِّي أَقُصُّ عَلَيْكَ الآنَ هٰذِهِ القِصَّةَ فَيُمْكِنُكَ أَنْ تَرى أَنِّي قَدْ نَجَوْتُ بِالطَّريقَةِ الَّتي وَصَفْتُها . فَفي السَّاعَةِ التَّالِيَةِ كانَ مَرْكَبُنا قَدْ هَبَطَ نَحْوَ مَرْكَزِ الدُّوَّامَةِ بِمَسافَةٍ أَكْبَرَ بِكَثيرٍ مِنَ المَسافَةِ الَّتي هَبَطْتُ بِها . وَقَدْ رَأَيْتُ مَرْكَبَنا يَقومُ بِثَلاثِ لَفَّاتٍ سَريعَةٍ أَوْ أَرْبَعٍ ، ثُمَّ يَغوصُ فَجْأَةً وَإِلى الأَبَدِ حامِلًا أَخي المَحْبوبَ إِلى المِياهِ الغاضِبَةِ في قاعِ الدُّوَّامَةِ . أَمَّا البَرْميلُ الَّذي كُنْتُ مَرْبوطًا فيهِ فَلَمْ يَهْبِطْ إِلَّا نِصْفَ المَسافَةِ ، ثُمَّ حَدَثَ تَغَيُّرٌ كَبيرٌ في المِنْطَقَةِ المُحيطَةِ بي ، إِذْ أَخَذَتْ زاوِيَةُ انْحِدارِ الماءِ في

الدُّوّامةِ تَقِلُّ تَدْريجيًا ، وَبَدَأَتْ حَرَكَةُ الدُّوّامةِ الدّائريَّةِ تَخِفُّ حِدَّةً ، وَبَدَا لي أَنَّ مَرْكَزَ الدُّوّامةِ قَدْ بَدَأَ يَرْتَفِعُ . أَمّا السَّماءُ فَقَدْ صَفَتْ ، وَالرِّياحُ قَدْ هَدَأَتْ ، وَكانَ البَدْرُ قَدْ أَوْشَكَ عَلى الغُروبِ عِنْدَما طَفَوْتُ عَلى سَطْحِ المُحيطِ . لَقَدْ كُنْتُ فَوْقَ المَكانِ الَّذي احْتَلَّتْهُ الدُّوّامةُ . وَعَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كانَ الوَقْتُ الَّذي تَهْدَأُ فيهِ الدُّوّامةُ إِلّا أَنَّ المَوْجَ كانَ عالِيًا بِسَبَبِ العاصِفةِ .

« وَبَعْدَ فَتْرةٍ حَمَلَني التَّيّارُ السَّريعُ نَحْوَ الشّاطِئِ في مِنْطَقةِ الصَّيْدِ الجَنوبيَّةِ ، وَهُناكَ الْتَقَطَني مَرْكَبُ صَيْدٍ ، وَكانَ بَحّارَتُهُ مِنْ أَصْدِقائي في لوفوتين . وَلٰكِنْ لَمْ يَعْرِفْني أَيُّ واحِدٍ مِنْهُمْ لِأَنَّ شَعْرِيَ الَّذي كانَ أَسْوَدَ اللَّوْنِ في اليَوْمِ الماضي قَدِ ابْيَضَّ كُلُّهُ كَما تَراهُ الآنَ . وَمَكَثْتُ فَتْرةً لا أَقْوى عَلى الكَلامِ رَغْمَ أَنَّ الخَطَرَ قَدْ زالَ بِسَبَبِ التَّجْرِبةِ المَريرةِ الَّتي مَرَّتْ بي .

« ثُمَّ أَخْبَرْتُهُمْ بِقِصَّتي في النِّهايةِ ، وَلٰكِنَّهُمْ لَمْ يُصَدِّقوها . وَها أَنَذا أُخْبِرُكَ بِها وَلا أَتَوَقَّعُ مِنْكَ أَنْ تَكونَ أَكْثَرَ تَصْديقًا مِنْهُمْ . »

انْهِيارُ بَيْتِ « أَشَر »

سافَرْتُ وَحْدي مُمْتَطِيًا جَوادي مُيَمِّمًا شَطْرَ « بَيْتِ أَشَر » ، وَكانَ سَفَري في يَوْمٍ كَئيبٍ مِنْ أَيّامِ الخَريفِ . وَعِنْدَما اقْتَرَبْتُ مِنَ المَكانِ شَعَرْتُ بِانْقِباضٍ ، وَازْدادَ هٰذا الشُّعورُ وَكَأَنَّما كانَ يَتَجاوَبُ مَعَ تِلْكَ السَّماءِ الغائِمةِ المُظْلِمةِ فَوْقي ، وَمَعَ تِلْكَ الجُدْرانِ البارِدةِ الرَّماديَّةِ أَمامي . وَلَمْ أَعْرِفْ سَبَبًا لِشُعورِ الانْقِباضِ هٰذا ما لَمْ يَكُنْ نَتيجةً لِمَظْهَرِ البَيْتِ القَديمِ المُتَداعي وَالمِنْطَقةِ المُحيطةِ بِهِ . لَقَدْ كانَتْ نَوافِذُ البَيْتِ الكَبيرةِ السَّوْداءُ تَبْدو أَمامي وَكَأَنَّها أَعْيُنٌ سَوْداءُ في وَجْهٍ خالٍ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ سِواها . وَكانَتِ الجُذوعُ البَيْضاءُ لِأَشْجارٍ خالِيةٍ مِنَ الحَياةِ تُحيطُ بِبُحَيْرةٍ سَكَنَتْ مِياهُها . وَكانَتْ تِلْكَ المِياهُ السّاكِنةُ تَعْكِسُ المَنْظَرَ المُحيطَ بِها فَتَبْدو الصّورةُ أَكْثَرَ كَآبةً مِنَ الحَقيقةِ . وَأَخيرًا تَخَلَّيْتُ عَنْ مُحاوَلةِ مَعْرِفةِ سَبَبِ انْقِباضي وَتَرَكْتُ البُحَيْرةَ مُتَّجِهًا نَحْوَ البَيْتِ .

كانَ رُودْريك أَشَر – صاحِبُ البَيْتِ – أَقْرَبَ أَصْدِقاءِ الطُّفولةِ إِلى نَفْسي ، وَلٰكِنَّ لِقاءَنا الأَخيرَ كانَ مُنْذُ عِدَّةِ سَنَواتٍ . وَكانَ قَدْ أَرْسَلَ إِلَيَّ أَخيرًا دَعْوةً عاجِلةً لِأَقومَ بِزيارَتِهِ ، بَلْ إِنَّهُ في الحَقيقةِ قَدْ رَجاني أَنْ أَمْكُثَ عِنْدَهُ عِدَّةَ أَسابيعَ . وَقالَ لي في خِطابِهِ إِنَّهُ كانَ يُعاني مِنْ مَرَضٍ شَديدٍ ؛ مَرَضٍ في أَعْصابِهِ ، وَإِنَّ صُحْبَتي لَهُ سَوْفَ تُدْخِلُ البَهْجةَ إِلى نَفْسِهِ ، وَتُهَدِّئُ مِنْ أَفْكارِهِ المُضْطَرِبةِ . وَشَعَرْتُ مِنْ خِطابِهِ أَنَّهُ صادِقٌ في كُلِّ ما قالَهُ ، فَلَمْ أَتَرَدَّدْ في تَلْبِيَةِ دَعْوَتِهِ . وَها أَنَذا أَمامَ بَيْتِ أَشَر .

عَلى ٱلرَّغْمِ مِنْ صَداقَتِنا ٱلحَميمةِ خِلالَ فَتْرةِ ٱلطُّفولةِ فإنَّ مَعْلوماتي عَنْهُ كانَتْ قليلةً . لَقَدْ تَذَكَّرْتُ أَنَّهُ غالبًا ما كانَ هادِئًا مُنْزَوِيًا ، وَأَنَّ عائِلَتَهُ ٱلعَريقةَ عُرِفَ أَفْرادُها بِخَيالِهِم ٱلمُمَيَّزِ ، وَأَنَّ تِلْكَ ٱلظّاهِرةَ قَدْ تَجَلَّتْ في صُورةِ أَعْمالٍ فَنِّيَّةٍ وَمُوسيقيَّةٍ عَظيمةٍ وَعَديدةٍ . وَكُنْتُ أَعْرِفُ كَذٰلِكَ تِلْكَ ٱلحَقيقةَ ٱلغَريبةَ عَنِ ٱلعائِلةِ ، أَعْني بِها أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ لَها أَيُّ فُروعٍ وَأَنَّ تَسَلْسُلَ أَفْرادِها كانَ مُباشِرًا ، وَلِهٰذا فإنَّ اسْمَ ٱلعائِلةِ وَمُمْتَلَكاتِها كانَتْ تَنْتَقِلُ مِنَ ٱلأَبِ لِلابْنِ مِنْ دُونِ انْقِطاعٍ . وَلِهٰذا فإنَّ كَلِمةَ بَيْتِ أَشَر ، لَمْ تَكُنْ تَعْني ٱلمَنْزِلَ وَٱلأَرْضَ فَحَسْبُ ، وَلٰكِنَّها كانَتْ تَعْني كَذٰلِكَ تِلْكَ ٱلعائِلةَ ٱلوَحيدةَ ٱلَّتي تَعيشُ بِٱلبَيْتِ .

عِنْدَما اقْتَرَبْتُ مِنَ ٱلبَيْتِ ٱلرَّماديِّ ٱلضَّخْمِ تَوَهَّمْتُ شَيْئًا غَريبًا : لَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ ٱلهَواءَ ٱلَّذي يُحيطُ بِٱلبَيْتِ كانَ مُخْتَلِفًا عَنْ باقي ٱلهَواءِ ٱلَّذي خَلَقَهُ ٱللّٰهُ . وَظَنَنْتُ أَنَّ ٱلسَّبَبَ في ذٰلِكَ هُوَ تِلْكَ ٱلأَشْجارُ ٱلذّابِلةُ وَٱلجُدْرانُ ٱلرَّماديَّةُ وَٱلبُحَيْرةُ ٱلسّاكِنةُ . بَلْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ ٱلهَواءَ نَفْسَهُ رَماديٌّ وَأَنَّهُ يُحيطُ بِٱلمَكانِ كَٱلسَّحابِ . وَلَمْ أَتَخَلَّصْ مِنْ وَهْمي هٰذا إِلّا بِصُعوبةٍ .

وَعِنْدَما دَنَوْتُ مِنَ ٱلبَيْتِ وَرَأَيْتُهُ بِوُضوحٍ ظَهَرَ أَنَّ ٱلبَيْتَ قَديمٌ لِلْغايةِ – فَقَدْ كانَ ٱلبِناءُ ما يَزالُ كامِلًا فَلَمْ يَسْقُطْ مِنْهُ أَيُّ جُزْءٍ ، وَلٰكِنَّ كُلَّ حَجَرٍ مِنْ أَحْجارِهِ كانَ كَبَقايا حَجَرٍ سَحَقَتْهُ ٱلأَعْوامُ . وَلَمْ يَظْهَرْ بِٱلبَيْتِ



مَظْهَرٌ آخَرُ مِنْ مَظاهِرِ ٱلضَّعْفِ بِاسْتِثْناءِ شَرْخٍ طَوِيلٍ ضَيِّقٍ يَمْتَدُّ مِنْ سَقْفِ ٱلْبَيْتِ عِنْدَ ٱلواجِهَةِ حَتَّى مُسْتَوى ٱلأَرْضِ .

أَخَذَ أَحَدُ ٱلخَدَمِ حِصاني ثُمَّ دَخَلْتُ ٱلمَمَرَّ ٱلمُوَصِّلَ لِلْقاعَةِ .. وَبَعْدَ ذٰلِكَ قادَني آخَرُ في سُكونٍ عَبْرَ ٱلعَديدِ مِنَ ٱلمَمَرَّاتِ ٱلمُلْتَوِيَةِ ٱلمُظْلِمَةِ لِيَصِلَ بي إلى غُرْفَةِ سَيِّدِهِ . وَكانَ لِمُعْظَمِ ما رَأَيْتُهُ وَأَنا في ٱلغُرْفَةِ أَثَرٌ غَريبٌ في نَفْسي ، رَغْمَ أَنّي كُنْتُ مُعْتادًا طَوالَ حَياتي عَلى رُؤْيَةِ ما رَأَيْتُ مِنْ أَسْقُفٍ مُزَرْكَشَةٍ وَسَتائِرَ سَميكَةٍ وَدُروعٍ وَأَسْلِحَةٍ قَديمَةٍ وَصُفوفٍ مِنَ ٱلصُّوَرِ . وَقَدْ قابَلْتُ طَبيبَ ٱلعائِلَةِ وَأَنا أَصْعَدُ ٱلدَّرَجَ ، وَقَدْ بَدَتْ عَلَيْهِ مَظاهِرُ ٱلحَيْرَةِ وَٱلخَوْفِ عِنْدَما رَآني .

عِنْدَما وَصَلْتُ في ٱلنِّهايَةِ إلى غُرْفَةِ مُضيفي أَلْفَيْتُها حُجْرَةً واسِعَةً مُظْلِمَةً ذاتَ سَقْفٍ مُرْتَفِعٍ ، وَمُزْدَحِمَةً ٱلأَثاثِ ٱلقَديمِ . وَكانَتْ عِدَّةُ كُتُبٍ وَآلاتٍ مُوسيقِيَّةٍ مُبَعْثَرَةً هُنا وَهُناكَ ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَبْعَثْ شَيْئًا مِنَ ٱلحَياةِ في ٱلمَنْظَرِ ٱلعامِّ لِلْغُرْفَةِ . وَشَعَرْتُ أَنَّني أَتَنَفَّسُ هَواءً مُشْبَعًا بِٱلحُزْنِ .

رَحَّبَ بي أَشَر بِحَرارَةٍ ثُمَّ جَلَسْنا ، وَأَخَذْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ لِلَحَظاتٍ وَٱلشَّفَقَةُ تَمْلَأُ جَوانِحي . لَيْسَ مِنْ شَكٍّ أَنَّ ٱلتَّغْييرَ ٱلَّذي لَحِقَ بِهِ لَمْ يَحْدُثْ لِأَحَدٍ قَبْلَهُ في مِثْلِ هٰذِهِ ٱلفَتْرَةِ ٱلوَجيزَةِ . لَقَدْ كانَ دائِمًا شاحِبَ ٱلوَجْهِ وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَطُّ في مِثْلِ هٰذا ٱلشُّحوبِ . إِنَّ عَيْنَيْهِ ٱلواسِعَتَيْنِ ٱللَّامِعَتَيْنِ قَدْ أَصْبَحَتا ٱلآنَ أَكْثَرَ اتِّساعًا وَبِصورَةٍ غَيْرِ طَبيعِيَّةٍ ، كَما ازْدادَ لَمَعانُهُما بِدَرَجَةٍ مُذْهِلَةٍ . وَأَصْبَحَتْ شَفَتاهُ مُجَرَّدَ خَطَّيْنِ مَرْسومَيْنِ عَلى وَجْهِهِ ، أَمَّا شَعْرُهُ ٱلجَميلُ ٱلنَّاعِمُ فَهُوَ ٱلآنَ أَشْعَثُ غَيْرُ مُهَذَّبٍ يَطْفو في غَيْرِ نِظامٍ عَلى وَجْهِهِ وَرَقَبَتِهِ .

وَتَغَيَّرَتْ تَصَرُّفاتُ صَديقي كَذٰلِكَ بِدَرَجَةٍ لا تَقِلُّ غَرابَةً . لَقَدْ كانَ طَوالَ ٱلوَقْتِ إِمَّا في حالَةٍ مِنَ ٱلتَّوَتُّرِ ٱلشَّديدِ أَوِ ٱلقَلَقِ ٱلعَنيفِ . وَبِٱنْتِقالِهِ سَريعًا مِنْ حالَةٍ إلى أُخْرى كانَ صَوْتُهُ يَتَغَيَّرُ فَجْأَةً بِحَيْثُ تَتَحَوَّلُ ٱلنَّبْرَةُ ٱلهائِجَةُ ٱلمُرْتَفِعَةُ إلى صَوْتٍ ثابِتٍ مُتَأَنٍّ وَكَأَنَّهُ صَوْتُ شَخْصٍ قَدْ أَسْرَفَ في ٱلشَّرابِ .

وَبِهٰذا ٱلأُسْلوبِ تَحَدَّثَ عَنْ زِيارَتي ، وَعَنْ رَغْبَتِهِ ٱلصّادِقَةِ في رُؤْيَتي ، وَٱلارْتِياحِ ٱلنَّفْسِيِّ ٱلَّذي يَتَوَقَّعُ أَنْ يَنْجُمَ عَنْ زِيارَتي لَهُ . وَبَدَأَ يَقُصُّ عَلَيَّ قِصَّةَ مَرَضِهِ في إِسْهابٍ وَتَفْصيلٍ ، وَقالَ في وَصْفِ هٰذا ٱلمَرَضِ إِنَّهُ لَعْنَةٌ أَصابَتْ عائِلَتَهُ ، وَيَبْدو أَنْ لا عِلاجَ لَهُ . ثُمَّ أَضافَ إلى ذٰلِكَ قَوْلَهُ فَجْأَةً إِنَّهُ مَرَضٌ بَسيطٌ لَيْسَ مِنْ شَكٍّ في أَنَّهُ سَيَزولُ . وَكانَ يُقاسي كَثيرًا مِنْ حِدَّةِ حَواسِّهِ ، فَلَيْسَ في وُسْعِهِ أَنْ يَأْكُلَ إِلَّا ٱلطَّعامَ ٱلَّذي لا طَعْمَ لَهُ ، وَأَنْ يَلْبَسَ إِلَّا نَوْعًا مُعَيَّنًا مِنَ ٱلقُماشِ ، وَلا يَقْوى عَلى تَحَمُّلِ رائِحَةِ ٱلأَزْهارِ كَما أَنَّ أَخْفَتَ ٱلأَضْواءِ يُؤْذي عَيْنَيْهِ ، وَقَدْ أَصْدَرَ أَمْرَهُ بِأَلَّا يَصْدُرَ بِٱلبَيْتِ أَيُّ صَوْتٍ بِٱسْتِثْناءِ بَعْضِ ٱلأَصْواتِ ٱلموسيقِيَّةِ .

قالَ : « إِنّي أَخْشى ٱلمُسْتَقْبَلَ ، وَلا أَعْني بِذٰلِكَ أَنّي أَخْشى ما يَحْدُثُ فيهِ بَلْ أَثَرَ هٰذِهِ ٱلأَحْداثِ عَلَيَّ . إِنَّني أَرْتَعِدُ خَوْفًا مِنْ حُدوثِ أَيِّ شَيْءٍ يَزيدُ مِنْ قَلَقي حَتَّى وَإِنْ كانَ هٰذا ٱلشَّيْءُ تافِهًا . إِنَّني أَشْعُرُ — في حالَتي ٱلفَظيعَةِ هٰذِهِ — أَنَّهُ سَوْفَ يَأْتي وَقْتٌ قَريبٌ أَتَخَلَّصُ فيهِ مِنْ روحي وَجَسَدي مَعًا أَثْناءَ صِراعي مَعَ ٱلخَوْفِ . »

لَقَدْ صُدِمْتُ عِنْدَما عَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يُغادِرْ بَيْتَهُ مُنْذُ عِدَّةِ سَنَواتٍ . وَقَدْ قالَ

لي : « إنَّ ٱلبيْتَ بِجُدْرانِهِ وَأَبْراجِهِ قَدْ سَيْطَرَ عَلَيَّ كُلَّ ٱلسَّيْطَرةِ ، وَهُناكَ قُوَّةٌ غَريبةٌ تَرْبِطُني بِهِ وَكَأَنَّ ٱلبيْتَ وَما فيهِ كائناتٌ حَيَّةٌ . » وَلَمْ أَعْرِفْ ماذا أَقولُ لِصَديقي عَنْ ذٰلِكَ .

وَاعْتَرَفَ لي بِشَيْءٍ مِنَ ٱلتَّرَدُّدِ أَنَّ قَدْرًا كَبيرًا مِنْ تَعاسَتِهِ يَرْجِعُ إلي سَبَبٍ بَسيطٍ هُوَ ٱلمَرَضُ ٱلمُزْمِنُ ٱلمُؤْلِمُ ٱلَّذي تُعاني مِنْهُ شَقيقَتُهُ ٱلَّتي يُحِبُّها مِنْ كُلِّ قَلْبِهِ . إنَّها رَفيقَتُهُ مِنْ سَنَواتٍ عَديدةٍ ، وَآخِرُ أَقْرِبائِهِ عَلى ٱلأَرْضِ . وَقالَ لي بِمَرارةٍ لَنْ أُنْساها : « إنَّها سَوْفَ تَموتُ قَريبًا . وَبِمَوْتِها أُصْبِحُ آخِرَ فَرْدٍ في عائِلةِ أَشَر ٱلعَريقةِ . » وَفي أَثْناءِ حَديثِهِ مَرَّتْ ليدي مادْلين – فَقَدْ كانَ هٰذا اسْمَها – بِأَقْصى ٱلغُرْفةِ وَلَمْ تَلْحَظْ وُجودي مَعَ أَخيها ، فَنَظَرْتُ إلَيْها بِدَهْشةٍ وَخَوْفٍ حَقيقِيَّيْنِ ، وَلَمْ أَدْرِ سَبَبًا لِتِلْكَ ٱلدَّهْشةِ وَذٰلِكَ ٱلخَوْفِ . وَعِنْدَما ذَهَبَتْ نَظَرْتُ إلي صَديقي فَوَجَدْتُهُ قَدْ غَطَّى وَجْهَهُ بِكِلْتا راحَتَيْهِ لِيُخْفيَ طُوفانًا مِنَ ٱلدُّموعِ .

إنَّ ٱلمَرَضَ ٱلَّذي تُعاني مِنْهُ ليدي مادْلين قَدْ أَعْجَزَ أَطِبّاءَها رَغْمَ مَهارَتِهِمْ ، وَلَمْ تَعُدْ تَهْتَمُّ بِأَنْ تَعيشَ أَوْ تَموتَ . إنَّ نُقْصانَ وَزْنِها ٱلمُسْتَمِرَّ قَدْ جَعَلَ جِسْمَها واهِنًا ضَعيفًا ، وَمِمّا زادَ ٱلطّينَ بِلَّةً أَنَّ قَلْبَها كانَ يَتَوَقَّفُ مِنْ وَقْتٍ لِآخَرَ . وَقالَ لي صَديقي في حُزْنٍ يَصِفُ تِلْكَ ٱلفَتَراتِ ٱلَّتي يَتَوَقَّفُ فيها قَلْبُها : « لا يُمْكِنُ ٱلتَّفْرِقةُ بَيْنَ هٰذِهِ ٱلفَتَراتِ وَبَيْنَ ٱلمَوْتِ ٱلحَقيقِيِّ . إنَّ عَلَيْها ٱلآنَ أَنْ تَظَلَّ في فِراشِها ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّنا لَنْ نَراها مَرَّةً أُخْرى عَلى قَيْدِ ٱلحَياةِ . »

مَكَثْنا عِدَّةَ أَيّامٍ لا نَذْكُرُ اسْمَها ، وَخِلالَ تِلْكَ ٱلفَتْرةِ كُنْتُ أَبْذُلُ قُصارى

جَهْدي كَيْ أَبْعَثَ ٱلرّاحةَ وَٱلبَهْجةَ في قَلْبِ صَديقي . فَكُنّا نَقومُ مَعًا بِٱلرَّسْمِ وَٱلقِراءةِ ، أَوْ كُنْتُ أَسْتَمِعُ – وَكَأَنَّني في حُلْمٍ – إلى ٱلموسيقى ٱلَّتي كانَ يَعْزِفُها . وَازْدادَتْ أَواصِرُ ٱلصَّداقةِ بَيْنَنا ، وَأَخَذَ كُلٌّ مِنّا يَقُصُّ عَلى ٱلآخَرِ أَسْرارَهُ وَدَخيلةَ نَفْسِهِ . وَلٰكِنْ كانَ هٰذا كُلُّهُ مِنْ دونِ جَدْوى إذْ إنَّ ٱلظَّلامَ ٱلَّذي كانَ يَمْلَأُ مُخَيِّلَتَهُ قَدْ صَبَغَ كُلَّ شَيْءٍ حَوْلَنا بِلَوْنٍ أَسْوَدَ ، وَكَأَنَّما هُوَ طوفانٌ مِنَ ٱلبُؤْسِ لا آخِرَ لَهُ .

سَوْفَ أَذْكُرُ دائمًا تِلْكَ ٱلسّاعاتِ ٱلطَّويلةَ ٱلجادَّةَ ٱلَّتي قَضَيْتُها مَعَ صاحِبِ بَيْتِ اشَر ، وَلٰكِنْ لَيْسَ في وُسْعي أَنْ أَشْرَحَ بِصورةٍ وافيةٍ ما كُنّا نَقومُ بِهِ مِنْ أَعْمالٍ وَمُناقَشاتٍ . لَقَدْ كانَتْ لَهُ مُثُلُهُ ٱلعُلْيا ٱلَّتي أَصْبَحَتْ مُخْتَلِطةً مُضْطَرِبةً خِلالَ مَرَضِهِ ٱلطَّويلِ ، وَلَمْ يَكُنْ في وُسْعِهِ آنَذاكَ إلّا أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ هٰذِهِ ٱلمُثُلِ بِٱللَّوْنِ وَٱلصَّوْتِ : بِأَكْثَرِ ٱلرُّسومِ غَرابةً وَبِٱلموسيقى ٱلصَّعْبةِ ٱلَّتي يَقومُ هُوَ بِوَضْعِها . وَلَمْ يَكُنِ ٱلنّاتِجُ عَنْ هٰذا ٱلتَّعْبيرِ شَيْئًا يَتَّسِمُ بِٱلوُضوحِ حَتّى بِٱلنِّسْبةِ إلَيْهِ نَفْسِهِ . وَلِهٰذا فَمِنَ ٱلمُمْكِنِ أَنْ تَتَصَوَّرَ مَدى ٱلصُّعوبةِ ٱلَّتي واجَهْتُها وَأَنا أُحاوِلُ فَهْمَهُ .

لَقَدْ ظَنَنْتُ يَوْمًا أَنَّ فِكْرةَ إحْدى صُوَرِهِ سَهْلةٌ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ عَلى ٱلرَّغْمِ مِنْ عَدَمِ تَفَهُّمي لَها . وَلَقَدْ تَذَكَّرْتُ تِلْكَ ٱلصّورةَ لِأَنَّها جَعَلَتْني أَرْتَعِدُ وَأَنا أَنْظُرُ إلَيْها . فَقَدْ ظَهَرَ في تِلْكَ ٱلصّورةِ مَمَرٌّ مُسْرِفٌ في ٱلطّولِ ، وَلَهُ جُدْرانٌ مُنْخَفِضةٌ ناعِمةٌ بَيْضاءُ . وَتُظْهِرُ خَلْفِيَّةُ ٱلصّورةِ أَنَّ هٰذا ٱلمَمَرَّ مُنْخَفِضٌ كَثيرًا عَنْ سَطْحِ ٱلأَرْضِ ، وَلٰكِنَّني لَمْ أَرَ لَهُ مَخْرَجًا وَلَيْسَتْ بِهِ مَصابيحُ أَوْ أَيُّ مَصْدَرٍ

آخَرَ لِلضَّوْءِ . وَمَعَ ذٰلِكَ فَقَدْ كانَ ٱلمَنْظَرُ بِأَجْمَعِهِ يَسْبَحُ في خِضَمٍّ مِنَ ٱلأَشِعَّةِ ٱللَّامِعَةِ .

وَفي أَثْناءِ إِحْدى مُناقَشاتِنا قالَ لي أَشَر إِنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ لِلنَّباتاتِ جَميعًا ٱلقُدْرَةَ عَلى ٱلإِحْساسِ . وَقالَ كَذٰلِكَ إِنَّ لِبَعْضِ ٱلأَجْسامِ غَيْرِ ٱلحَيَّةِ ٱلقُدْرَةَ عَلى ٱلإِحْساسِ في ظِلِّ بَعْضِ ٱلظُّروفِ . وكما ذَكَرْتُ آنِفًا فإِنَّ لِهٰذا ٱلاعْتِقادِ عَلاقَةً بِٱلأَحْجارِ ٱلرَّمادِيَّةِ لِبَيْتِهِ . فَقَدْ كانَ يَرى أَنَّ ٱلطَّريقَةَ ٱلَّتي صُفَّتْ بِها تِلْكَ ٱلأَحْجارُ في ٱلجُدْرانِ مُنْذُ مِئاتِ ٱلأَعْوامِ قَدْ مَنَحَتْها حَياةً خاصَّةً بِها . كَما أَنَّ ماءَ ٱلبُحَيْرَةِ وَٱلأَشْجارَ ٱلذّابِلَةَ لَها نَصيبٌ في تِلْكَ ٱلحَياةِ . وَأَضافَ قائِلًا : « إِنَّ ما يُثْبِتُ وُجودَ قُدْرَةٍ عَلى ٱلإِحْساسِ لَدى ٱلجُدْرانِ وَماءِ ٱلبُحَيْرَةِ أَنَّها قامَتْ بِٱلتَّدْريجِ وَبِصورَةٍ أَكيدَةٍ بِإِيجادِ نَوْعٍ مِنَ ٱلهَواءِ ٱلخاصِّ بِها لِيُحيطَ بِٱلمَكانِ . »

ذَكَّرَني هٰذا ٱلقَوْلُ بِما ساوَرَني مِنْ أَفْكارٍ وَأَنا أَقْتَرِبُ مِنَ ٱلبَيْتِ مِمّا جَعَلَني أَشْهَقُ في تَعَجُّبٍ وَاسْتِغْرابٍ . وَواصَلَ حَديثَهُ قائِلًا : « لَقَدْ كانَ لِهٰذا ٱلهَواءِ أَثَرُهُ ٱلصّامِتُ ٱلمُرْعِبُ عَلى أَفْرادِ أُسْرَتي . وَهُوَ ٱلَّذي جَعَلَني عَلى ما أَنا عَلَيْهِ . » فَٱلْتَزَمْتُ ٱلصَّمْتَ وَأَنا غَيْرُ قادِرٍ عَلى ٱلتَّفْكيرِ في رَدٍّ مُناسِبٍ .

ذاتَ مَساءٍ قالَ لي أَشَر في كَلِماتٍ مُقْتَضَبَةٍ إِنَّ ٱللَّيْدي مادْلين قَدْ تُوُفِّيَتْ ، وَإِنَّهُ يَنْوي أَنْ يَحْتَفِظَ بِجُثَّتِها لِمُدَّةِ أُسْبوعَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَدْفِنَها في إِحْدى ٱلغُرَفِ ٱلعَديدَةِ أَسْفَلَ ٱلبَيْتِ . وَلَمْ يَكُنْ سَبَبُ قَرارِهِ هٰذا غَيْرَ طَبيعِيٍّ ، لِأَنَّهُ كانَ قَدْ وَضَعَ في اعْتِبارِهِ ذٰلِكَ ٱلمَرَضَ ٱلغَريبَ ٱلَّذي كانَتْ تُعاني مِنْهُ . وَبِاخْتِصارٍ كانَ

هَدَفُهُ أَنْ يَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّها قَدْ ماتَتْ حَقيقَةً قَبْلَ أَنْ يَضَعَ جُثَّتَها في مَقْبَرَةِ ٱلعائِلَةِ .

اسْتَجَبْتُ لِطَلَبِ أَشَر وَساعَدْتُهُ في ٱلقِيامِ بِهٰذِهِ ٱلتَّرْتيباتِ . لَقَدْ قُمْنا – نَحْنُ ٱلاثْنَيْنِ فَقَطْ – بِحَمْلِ ٱلجُثَّةِ داخِلَ ٱلتّابوتِ إِلى غُرْفَةٍ صَغيرَةٍ رَطْبَةٍ مُظْلِمَةٍ تَقَعُ أَسْفَلَ ٱلمَكانِ ٱلَّذي كُنْتُ أَنامُ فيهِ . وَكانَتْ تِلْكَ ٱلغُرْفَةُ تُسْتَخْدَمُ فيما مَضى مِنَ ٱلزَّمانِ مَخْزَنًا لِلْبارودِ أَوْ غَيْرِهِ مِنْ مَوادَّ خَطِرَةٍ . وَكانَ جُزْءٌ مِنْ أَرْضِ ٱلغُرْفَةِ مُغَطًّى بِٱلنُّحاسِ ، كَما كانَ ٱلنُّحاسُ يُغَطّي جُدْرانَ ذٰلِكَ ٱلمَمَرِّ ٱلطَّويلِ ٱلمُؤَدّي إِلى ٱلغُرْفَةِ وَيُحيطُ بِٱلبابِ ٱلحَديدِيِّ ٱلثَّقيلِ ٱلخاصِّ بِتِلْكَ ٱلغُرْفَةِ .

بَعْدَ أَنْ وَضَعْنا ٱلتّابوتَ عَلى مِنْضَدَةٍ مُنْخَفِضَةٍ أَزَحْنا ٱلغِطاءَ قَليلًا وَنَظَرْنا إِلى وَجْهِ ٱلمُتَوَفّاةِ ، وَلاحَظْتُ عَلى ٱلفَوْرِ أَنَّ ٱلأَخَ وَأُخْتَهُ كانا مُتَشابِهَيْنِ تَمامًا . وَقَدْ لاحَظَ أَشَر ما دارَ في ذِهْني فَقالَ لي إِنَّهُما كانا تَوْأَمَيْنِ ،وَإِنَّهُما كانا مُتَعاطِفَيْنِ بِصورَةٍ غَيْرِ عادِيَّةٍ . لَقَدْ شابَ وَجْهَها وَرَقَبَتَها لَوْنٌ طَفيفٌ ، وَكانَتْ عَلى شَفَتَيْها ابْتِسامَةٌ خافِتَةٌ تَبْعَثُ ٱلرُّعْبَ لِأَنَّها تَأْتي مِنْ شَخْصٍ مَيِّتٍ . لَمْ نُطِلِ ٱلنَّظَرَ إِلَيْها ، بَلْ أَرْجَعْنا ٱلغِطاءَ إِلى مَكانِهِ وَأَغْلَقْناهُ ، ثُمَّ أَوْصَدْنا ٱلبابَ ٱلحَديدِيَّ ، وَرَجَعْنا إِلى ٱلجُزْءِ ٱلعُلْوِيِّ مِنَ ٱلبَيْتِ .

بَعْدَ ثَلاثَةِ أَوْ أَرْبَعَةِ أَيّامٍ مِنَ ٱلحُزْنِ ٱلمَريرِ لاحَظْتُ شَيْئًا مِنَ ٱلتَّغْييرِ في تَصَرُّفاتِ صَديقي . لَقَدْ أَهْمَلَ أَوْ نَسِيَ نَشاطَهُ ٱلعادِيَّ مِنْ موسيقى وَقِراءَةٍ وَرَسْمٍ ، وَكانَ يَجولُ مِنْ غُرْفَةٍ إِلى غُرْفَةٍ مِنْ دونِ أَنْ يَعْمَلَ شَيْئًا أَوْ يَهْتَمَّ بِشَيْءٍ . وَازْدادَ شُحوبُ وَجْهِهِ عَنْ ذي قَبْلُ ، وَزالَ عَنْ عَيْنَيْهِ لَمَعانُها .

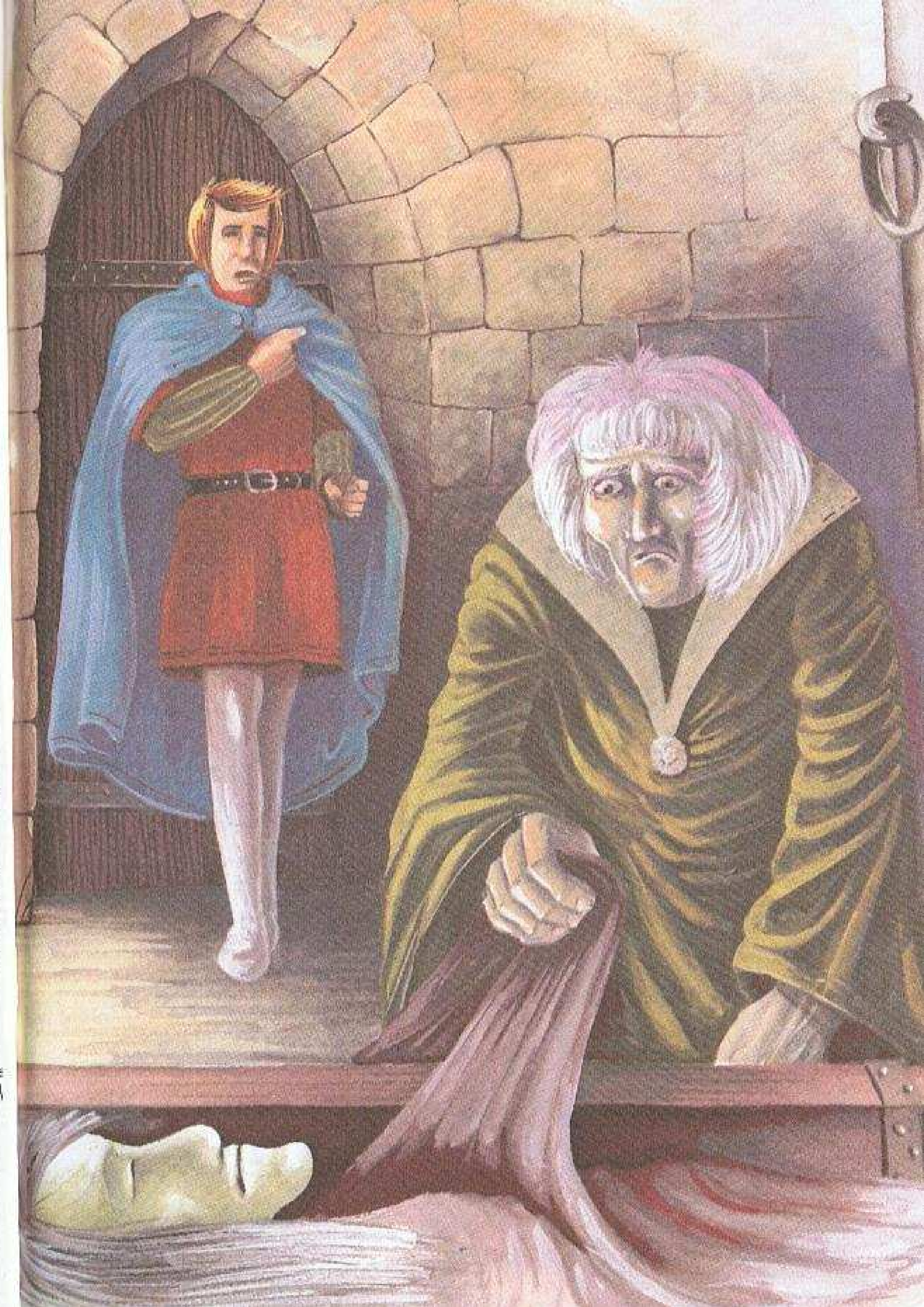
وَكُنْتُ أُحِسُّ في بَعْضِ ٱلأَحْيانِ أَنَّ لَدَيْهِ سِرًّا يُرِيدُ أَنْ يُفْضِيَ بِهِ إِلَيَّ ، وَلٰكِنْ تَنْقُصُهُ ٱلشَّجاعَةُ في ذٰلِكَ . وَكانَ في أَوْقاتٍ أُخْرى يَجْلِسُ ساعاتٍ طَويلَةً مُحاوِلًا ٱلإِصْغاءَ إِلى أَصْواتٍ يَتَخَيَّلُها ، وَكَأَنَّما كانَ يَتَوَقَّعُ حُدوثَ شَيْءٍ غَيْرِ عادِيٍّ . هَلْ مِنَ ٱلمُسْتَغْرَبِ أَنْ تَمْلَأَني حالَتُهُ تِلْكَ بِٱلخَوْفِ ، وَأَنْ أَشْعُرَ بِأَنَّ مَخاوِفَهُ ٱلمُرْعِبَةَ قَدْ بَدَأَتْ تَنْتابُني ؟

في ٱللَّيْلَةِ ٱلسّابِعَةِ أَوِ ٱلثّامِنَةِ بَعْدَ وَفاةِ ٱللَّيْدي مادْلِين بَدَأْتُ أُحِسُّ بِقُوَّةِ تِلْكَ ٱلمَشاعِرِ . وَكانَتْ عَيْناي لا تَغْمُضانِ لِساعاتٍ طَويلَةٍ وأَنا أُحاوِلُ مُقاوَمَةَ مَشاعِرِ ٱلخَوْفِ هٰذِهِ . وَكُنْتُ أُنْحي بِٱللَّوْمِ عَلى ٱلبيئَةِ ٱلمُحيطَةِ بي ، وَعَلى ٱلأَثاثِ ٱلمُتْرَبِ وَٱلسَّتائِرِ ٱلمُمَزَّقَةِ ٱلَّتي تَروحُ جَيْئَةً وَذَهابًا أَمامَ ٱلرِّيحِ ٱلَّتي تَسوقُها عاصِفَةٌ تُنْذِرُ بِٱلهُبوبِ . وَكُنْتُ أُنْحي بِٱللّائِمَةِ أَيْضًا عَلى ٱلفِراشِ ٱلَّذي كُنْتُ أَنامُ عَلَيْهِ . وَلٰكِنَّ تِلْكَ ٱلتَّعِلّاتِ لَمْ تُجْدِ شَيْئًا .

وَأَخيرًا نَهَضْتُ مِنْ فِراشي وَنَظَرْتُ مَلِيًّا في ظَلامِ ٱلغُرْفَةِ فَسَمِعْتُ — أَوْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنّي سَمِعْتُ — بَعْضَ ٱلأَصْواتِ ٱلخافِتَةِ ٱلَّتي كانَتْ تَجيءُ مِنْ حينٍ إِلى حينٍ كُلَّما خَفَتَ صَوْتُ ٱلرِّيحِ . فَأَسْرَعْتُ بِٱرْتِداءِ مَلابِسي وَأَنا أَرْتَعِدُ — وَلَمْ أَكُنْ أَدْري أَمِنَ ٱلخَوْفِ كانَ ٱرْتِعادي أَمْ مِنَ ٱلبَرْدِ ، وَحاوَلْتُ أَنْ أُهَدِّئَ رَوْعي بِٱلسَّيْرِ ٱلسَّريعِ جَيْئَةً وَذَهابًا داخِلَ ٱلغُرْفَةِ .

بَعْدَ أَنْ سِرْتُ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا سَمِعْتُ طَرْقًا خَفيفًا عَلى ٱلبابِ ، ثُمَّ دَخَلَ أَشَر وَهُوَ يَحْمِلُ مِصْباحًا . كانَتْ نَظَراتُ عَيْنَيْهِ تَنِمُّ عَنْ قَلَقٍ شَديدٍ .

صاحَ بي فَجْأَةً : « أَلَمْ تَرَها ؟ إِنَّكَ لَمْ تَرَها حَتّى ٱلآنَ ، وَلٰكِنِ ٱنْتَظِرْ



فَسَوْفَ تَراها . » ، ثُمَّ وَضَعَ مِصْباحَهُ بِعِنايَةٍ في مَأْمَنٍ مِنَ ٱلرِّيحِ ، وَأَسْرَعَ نَحْوَ ٱلنَّافِذَةِ وَفَتَحَها لِتَنْدَفِعَ مِنْها ريحُ ٱلعاصِفَةِ .

أَوْشَكَتِ ٱلعاصِفَةُ ٱلَّتي هَبَّتْ أَنْ تُلْقِيَ بِنا أَرْضًا ، وَمَعَ ذٰلِكَ لَمْ تَكُنِ ٱلعاصِفَةُ هِيَ ٱلَّتي جَذَبَتِ ٱنْتِباهَنا ، وَلا ٱلسُّحُبُ ٱلكَثيفَةُ ٱلَّتي كانَتْ تَتَطايَرُ في شَتَّى ٱلِٱتِّجاهاتِ حَوْلَ ٱلبَيْتِ وَٱلَّتي حَجَبَتِ ٱلقَمَرَ وَٱلنُّجومَ – وَلٰكِنْ ما جَذَبَ ٱنْتِباهَنا هُوَ ٱلبَيْتُ نَفْسُهُ وَكُلُّ ما حَوْلَهُ – فَقَدْ كانَتْ جَميعُها – حَتَّى ٱلسُّحُبُ في ٱلسَّماءِ – تَلْمَعُ بِضَوْءٍ غَيْرِ طَبيعِيٍّ غَريبٍ ، وَكانَ هٰذا ٱلضَّوْءُ يَنْبَعِثُ مِنَ ٱلجُدْرانِ وَمِنْ ماءِ ٱلبُحَيْرَةِ .

قُلْتُ لَهُ : « يَجِبُ أَلَّا تَنْظُرَ إِلى هٰذا ٱلضَّوْءِ وَسَوْفَ أَحولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ رُؤْيَتِهِ . إِنَّ هٰذا ٱلضَّوْءَ ٱلَّذي يُقْلِقُكَ لَيْسَ إِلَّا مُجَرَّدَ اضْطِراباتٍ كَهْرُبائِيَّةٍ في ٱلجَوِّ . هَيَّا بِنا نُغْلِقِ ٱلنَّافِذَةَ إِذْ إِنَّ ٱلرِّياحَ بارِدَةٌ ، وَهِيَ ضارَّةٌ بِصِحَّتِكَ . ها هُوَ ذا أَحَدُ كُتُبِكَ ٱلمُفَضَّلَةِ ، وَسَوْفَ أَقْرَأُ فيهِ ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَسْتَمِعَ ، وَبِذٰلِكَ نَقْضي هٰذِهِ ٱللَّيْلَةَ ٱلمُفْزِعَةَ مَعًا . »

بَدَأْتُ أَقْرَأُ وَبَدَأَ أَشَر يَسْتَمِعُ أَوْ يَتَظاهَرُ بِٱلِاسْتِماعِ في اهْتِمامٍ كَبيرٍ . وَكانَ ٱلَّذي أَقْرَأُهُ قِصَّةً مَشْهورَةً لِسير لُونْسيلوت كانِنج . وَبَعْدَ أَنْ واصَلْتُ ٱلقِراءَةَ لِثَماني أَوْ عَشْرِ دَقائِقَ وَصَلْنا إِلى ٱلمَوْقِفِ ٱلَّذي يَقْتَحِمُ فيهِ بَطَلُ ٱلقِصَّةِ بَيْتَ عَدُوِّهِ . وَكانَتْ كَلِماتُ ٱلقِصَّةِ في هٰذا ٱلمَوْقِفِ عَلى ٱلنَّحْوِ ٱلآتي :

« فَرَفَعَ إِثْلِرِد سَيْفَهُ وَضَرَبَ ٱلبابَ ضَرَباتٍ عَنيفَةً حَتَّى كَسَرَهُ وَفَتَحَهُ . وَكانَ صَوْتُ ٱلبابِ وَهُوَ يَنْكَسِرُ يَكادُ يَمْلَأُ ٱلغابَةَ . » وَفي نِهايَةِ هٰذِهِ ٱلجُمْلَةِ

تَوَقَّفْتُ إِذْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنِّي أَسْمَعُ صَوْتًا خافِتًا لِخَشَبٍ يَتَكَسَّرُ ، وَكانَ يَبْدو أَنَّ هٰذا ٱلصَّوْتَ يَأْتي مِنْ مَكانٍ ناءٍ في ٱلبَيْتِ ، وَقُلْتُ في نَفْسي لا بُدَّ أَنَّهُ ناجِمٌ عَنْ بَعْضِ ٱلأَضْرارِ ٱلَّتي أَحْدَثَتْها ٱلعاصِفَةُ ، وَلَيْسَ في هٰذا ما يَهُمُّني أَوْ يُقْلِقُني فَواصَلْتُ قِراءَةَ ٱلقِصَّةِ :

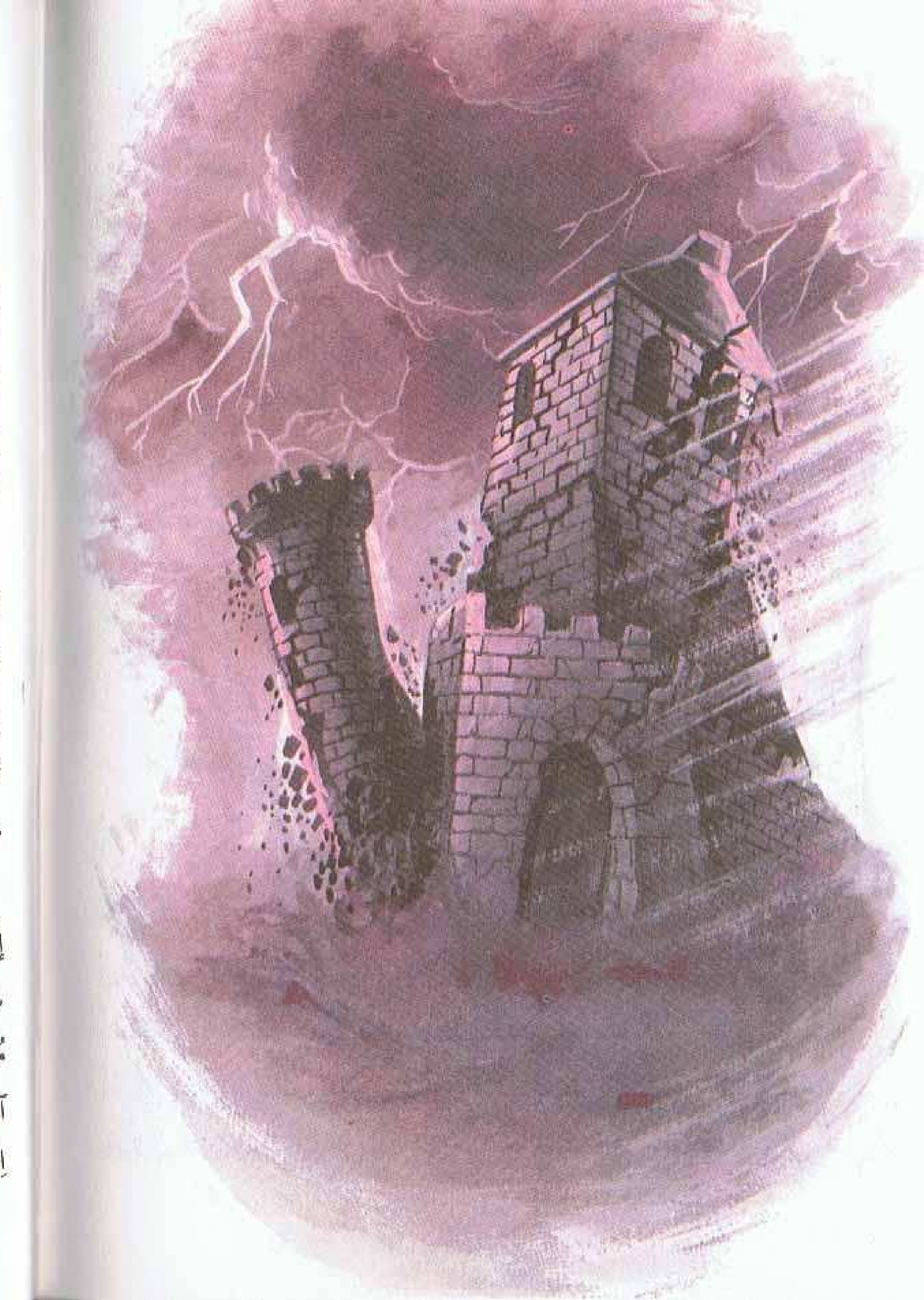
« وَعِنْدَما دَخَلَ إِثْلِرِد ٱلطَّيِّبُ تِلْكَ ٱلغُرْفَةَ وَقَفَ عَلى أَرْضٍ مِنَ ٱلفِضَّةِ أَمامَ وَحْشٍ غاضِبٍ ، وَكانَ وَراءَ ٱلوَحْشِ دِرْعٌ كَبيرٌ مُعَلَّقٌ عَلى ٱلحائِطِ مَكْتوبٌ عَلَيْهِ : مَنْ يَدْخُلْ هُنا فَقَدِ ٱنْتَصَرَ ، وَمَنْ يَقْتُلِ ٱلوَحْشَ فَلَهُ هٰذا ٱلدِّرْعُ . رَفَعَ إِثْلِرِد سَيْفَهُ مَرَّةً أُخْري وَضَرَبَ رَأْسَ ٱلوَحْشِ ، فَوَقَعَ ٱلوَحْشُ مَيِّتًا بَعْدَ أَنْ أَطْلَقَ عِدَّةَ صَرَخاتٍ اِهْتَزَّتْ لَها ٱلجُدْرانُ ، وَسَقَطَ ٱلدِّرْعُ ٱلثَّقيلُ عَلى ٱلأَرْضِ بِجِوارِ قَدَمَيْ إِثْلِرِد . »

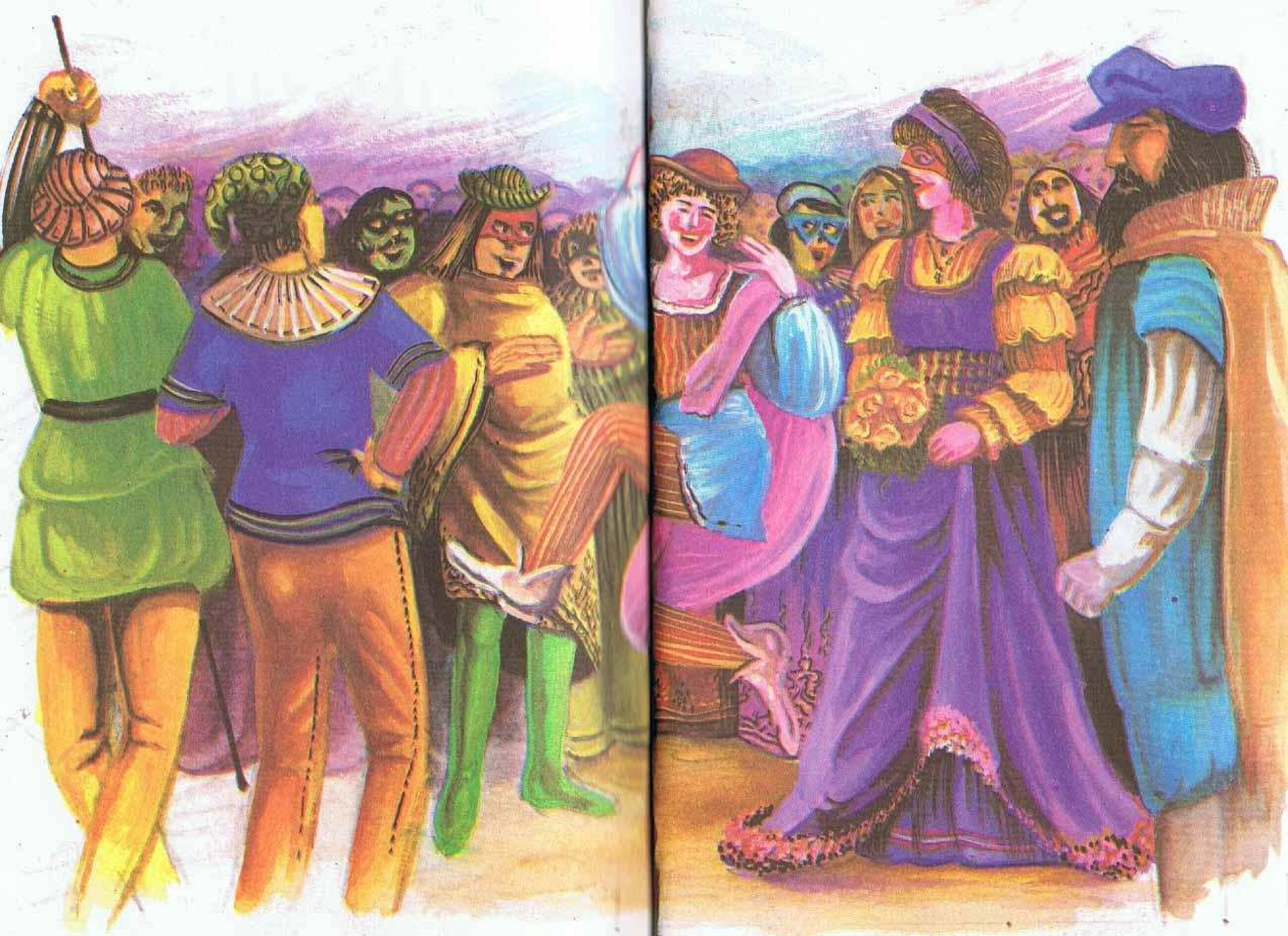
هُنا شَعَرْتُ مَرَّةً أُخْرى بِٱلدَّهْشَةِ وَٱلخَوْفِ ، وَاضْطُرِرْتُ إِلى أَنْ أَتَوَقَّفَ عَنِ ٱلقِراءَةِ إِذْ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ لَدَيَّ شَكٌّ آنَذاكَ أَنِّي سَمِعْتُ صَوْتَ أَلَمٍ وَاضِحٍ وَخافِتٍ ، وَتَبِعَ ذٰلِكَ عَلى ٱلفَوْرِ صَوْتُ ضَرَباتٍ تَقَعُ عَلى شَيْءٍ مَعْدِنِيٍّ . لَمْ أَكُنْ مُتَأَكِّدًا أَنَّ أَشَر نَفْسَهُ قَدْ سَمِعَ تِلْكَ ٱلأَصْواتَ ، فَٱنْدَفَعْتُ وَأَنا أَرْتَعِدُ إِلى ٱلكُرْسِيِّ ٱلَّذي يَجْلِسُ عَلَيْهِ ، وَكانَتْ عَيْناهُ مُرَكَّزَتَيْنِ عَلى ٱلبابِ وَشَفَتاهُ تَتَحَرَّكانِ . وَعِنْدَما انْحَنَيْتُ نَحْوَهُ سَمِعْتُهُ يَقولُ : « هَلْ أَسْمَعُهُ ؟ نَعَمْ ، إِنِّي أَسْمَعُهُ وَقَدْ سَمِعْتُهُ لِعِدَّةِ دَقائِقَ وَعِدَّةِ ساعاتٍ وَعِدَّةِ أَيَّامٍ . وَمَعَ ذٰلِكَ لَمْ أَجْرُؤْ ... آهٍ يا لَحَظِّيَ ٱلتَّعِسِ ! إِنَّني لَمْ أَجْرُؤْ عَلى ٱلكَلامِ ... لَقَدْ وَضَعْناها حَيَّةً في ٱلتَّابوتِ . أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّ حَواسي حادَّةٌ ؟ إِنِّي أُخْبِرُكَ ٱلآنَ أَنِّي قَدْ

سَمِعْتُ حَرَكاتِها الأُولى مُنْذُ عِدَّةِ أَيّامٍ ، وَمَعَ ذٰلِكَ لَمْ أَجْرُؤْ عَلى الكَلامِ . وَالآنَ في هٰذِهِ اللَّيْلَةِ قَرَأْتَ لي عَنْ إِثْلِرِد .. ها ! ها ! وَكَسْرِ الباب وَصَرْخَةِ المَوْتِ المُنْبَعِثَةِ مِنَ الوَحْشِ وَسُقوطِ الدِّرْعِ .. قُلْ بَدَلًا مِنْ ذٰلِكَ فَتْحَها لِتابوتِها وَصَرَخاتِها وَمُحاوَلاتِها في ذٰلِكَ المَمَرِّ النُّحاسِيِّ لِسِجْنِها . آهِ أَيْنَ أَخْتَبِئُ ؟ أَلَنْ تَأْتِيَ قَريبًا إِلى هُنا ؟ أَلَنْ تُسْرِعَ إِلَيَّ مُؤَنِّبَةً لي عَلى تَسَرُّعي ؟ أَلَمْ أَسْمَعْ خُطُواتِها عَلى الدَّرَجِ ؟ أَلا أُحِسُّ بِدَقّاتِ قَلْبِيَ العَنيفَةِ ؟ » وَهُنا قَفَزَ وَصاحَ بِأَعْلى صَوْتِهِ : « أَيُّها المَجْنونُ ، إِنّي أُخْبِرُكَ أَنَّها تَقِفُ الآنَ خارِجَ الباب . »

وَانْفَتَحَ البابُ الكَبيرُ وَكَأَنَّ في صَوْتِ أَشَر قُوَّةً خارِقَةً ، وَكانَتِ الرّيحُ الصّاخِبَةُ هِيَ الَّتي فَتَحَتِ البابَ عَلى مِصْراعَيْهِ . وَهُناكَ خارِجَ البابِ كانَتْ تَقِفُ لِيدي مادْلِين أوف أَشَر بِقَوامِها الطَّويلِ وَرِدائِها الأَبْيَضِ . ظَلَّتْ لِلَحْظَةٍ واقِفَةً بِالبابِ وَهِيَ تَرْتَعِدُ ، ثُمَّ انْدَفَعَتْ نَحْوَ أَخيها وَسَقَطَتْ بِثِقْلِها عَلَيْهِ وَهِيَ تُطْلِقُ صَيْحَةً خافِتَةً . ماتَ أَشَر لِتَوِّهِ مِنْ هَوْلِ الصَّدْمَةِ ، وَبَعْدَ دَقيقَةٍ واحِدَةٍ ماتَتْ أُخْتُهُ بِجِوارِهِ .

هَرَبْتُ مِنْ تِلْكَ الغُرْفَةِ وَمِنَ البَيْتِ كُلِّهِ مِنْ فَرْطِ خَوْفي . وَلَمْ أَنْظُرْ خَلْفي إِلّا بَعْدَ أَنْ كُنْتُ قَدِ اجْتَزْتُ البُحَيْرَةَ . وَعِنْدَئِذٍ دَوّى صَوْتٌ يُصِمُّ الآذانَ ، ثُمَّ شاهَدْتُ ذٰلِكَ الشَّرْخَ الَّذي أَشَرْتُ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَالَّذي يَمْتَدُّ مِنَ السَّقْفِ إِلى مُسْتَوى الأَرْضِ – شاهَدْتُهُ يَتَّسِعُ وَكَأَنَّهُ فَكّا وَحْشٍ ضَخْمٍ ، وَتَداعَتِ الجُدْرانُ الضَّخْمَةُ ، وَسَمِعْتُ أَصْواتًا عالِيَةً ، أَصْواتَ آلافِ الأَمْواجِ ، ثُمَّ ابْتَلَعَتْ مِياهُ البُحَيْرَةِ العَميقَةِ الدّاكِنَةِ ما تَبَقّى مِنْ حُطامِ بَيْتِ أَشَر .





المغامرات المثيرة

١ ـــ مغامرة في الأدغال
٢ ـــ مغامرة في الفضاء
٣ ـــ مغامرة أسيرين
٤ ـــ مغامرة في الجزيرة الخضراء
٥ ـــ مغامرة على الشاطىء
٦ ـــ الجاسوس الطائر
٧ ـــ لصوص الطريق
٨ ـــ حمد الغواص الشجاع
٩ ـــ اللصان الغبيان
١٠ ـــ مطاردة لصوص السيارات
١١ ـــ مغامرات السندباد البحري
١٢ ـــ لعبة خطرة
١٣ ـــ الحشرة الذهبية وقصص أخرى
١٤ ـــ اللؤلؤة السوداء
١٥ ـــ سر الجزيرة



مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت
رقم مرجع كمبيوتر 01 C 198 213